روايات عالمية للناشئة

جزيرة الكنز

روبيرت لويس ستيفنسون

RABIE

جزيرة الكنز

(روبيرت لويس ستيفنسون)

1850 - 1894

ترجمة

د. محمد نديم خشفة

ذكرى حاج حسين

إشراف : محمد كمـــال

إخراج فني : م. نشوان خريط



جزيرة الكنز

تقديم

ولد روبيرت لويس ستيفنسون سنة 1850 في أدنبورغ .

وكان صحفياً كثير الأسفار ، ورجلاً نابهاً سرعان ما شغل مكانة في الأدب الإنكليزي ، وقد كتب الحكايات والروايات والأشعار وعدداً من المقالات ، وتوفي في حوالي الرابعة والأربعين من العمر .

أحبه القراء الشباب في أنحاء العالم لأصالة فكره ولروعة المغامرات التي يرويها في مؤلفاته ، ولعل رواية " جزيرة الكنز " أعظمها جميعاً ، لأنها تتيح للفكر الفتي أن يتجول في أعالي البحار وأن يعيش المغامرات التي يتخيلها كل شاب .

الفصل الأول

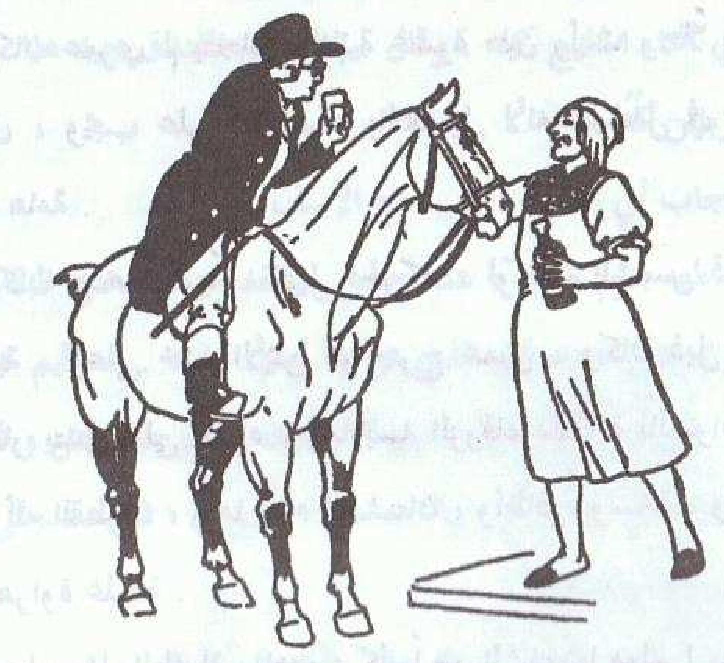
فندق " الأميرال بنبو "

كان أبي يملك على الساحل الغربي من إنكلترا فندقاً اسمه " الأميرال بنبو " ، وكانت الطريق التي تمر أمامه مهجورة ، فإذا تردد عليه عشرون رجلاً من الصيادين اعتبرنا أنفسنا سعداء .



وتبدأ الحركة في الفندق مساءً بعد عودة المراكب ، حين يسهر الصيادون يحكون ما جرى معهم في البحر . وكنت شديد الشوق إلى هذه الحكايات العجيبة . ومن حين إلى آخر ينشد الصيادون أغانيهم ويقطعون الليل في تردادها ، وكنا

ترافقهم : أبي من وراء طاولته ، وأمي في المطبخ ، وأنا أتنقل بين الزبائن والمنشفة بيدي ، وقد أطربتنا أغانيهم .



وكان الدكتور ليفرسي يوقف فرسه أمام الفندق راجعاً من عيادة أحد مرضاه وينادي : أحسنت يا معلم " هوكنس " ، إن فندقك يضج بالمرح .

فيقول أبي وهو يناوله كأس عصير : يحس الإنسان بالدفء بعد الضحك والغناء .

فيوافقه الدكتور على قوله ، ويسوق فرسه نحو القرية ضاحكاً .

كان عمري لم يتجاوز الثانية عشرة حين رأيت رجلاً يدخل الفندق ، ويجب عليّ أن أصفه بالتفصيل لأنه سيشغل في حياتي مكانة هامة .

كان ضخماً قوياً ، ثقيل الحركة ، لوّحت الشمس قسماته القاسية ، وعلى خده الأيمن أثر جرح عميق ، وكان ذيل شعره المستعار يتدلى على ظهره ، وملابسه الزرقاء ملطخة بالسواد حتى ليُظن أنه القطران ، وأما يداه فخشنتان ، وأظافره وسخة ، ويمسك بيده هراوة غليظة .

جلس إلى الطاولة ونادى : كأساً من الشاي يا معلم !

ورشفه بهدوء ثم قال : لا بأس به !

ولكي يعبر عن ابتهاجه جعل يغني بصوت مرتفع مما دفع كلبنا إلى النباح ، وكان يردد هذه العبارة بصوت كصرير الباب الصدئ :

" إنهم خمسة عشر فوق صندوقِ ميّت "

وضع يديه في جيبيه ودنا من النافذة وهو يصفر ، وتجول بعينيه في أنحاء الخليج كله ، وقال : إن موقع الفندق جيد هنا ، هل لديك زبائن كُثُر ؟

فأجاب أبي بحسرة : لا .. مع الأسف .

فقاطعه بحزم وقال : هذا حسن .. لقد عزمت على البقاء .. يا ولد ! احمل صندوقي الذي تركته أمام الباب .. سأقيم هنا ، ولست أبالي بنوع الطعام ، المهم أن يكون في الوجبة بيض ولحم ، هذا يكفيني مع النظر إلى المراكب تعبر الخليج .. احمل صندوقي إلى الغرفة .. خذ يا صديق !

ورمى أربع قطع ذهبية على الطاولة ، فأجابه أبي بصوت خجول :

– حسناً يا سيدي ! وآمل أن تكون مسروراً .

– لا تناديني " سيدي " !

فتمتم أبي : وكيف أناديك ؟

– ناديني القبطان .. هيا إلى الغرفة !

لقد نزل في فندق " الأميرال بنبو " ضيف جديد ... ولكن أي ضيف ! ؟ .

كان صامتاً طول النهار ، وما كان يشغله سوى التسكع في الخليج أو فوق الصخور ، ومعه منظاره المقرب المصنوع من النحاس ، وفي المساء يجلس في زاوية من القاعة بجانب النار ويتناول المشروبات الساخنة ، وحين يتوجه أحد إليه بالحديث ، لا يجيبه ، وإنما يصفر من أنفه كأنه صفارة إنذار ، ويحدق في عينيه الغاضبتين .



وأدركنا جميعاً ، نحن وزبائننا من الصيادين أن الأجدى أن نترك القبطان المتوحش بسلام . وكان كلما عاد من جولته يطرح عليّ السؤال ذاته : ألم يمر بحار في الطريق ؟ ألم يدخل الفندق ؟

فأجيبه وأنا أحس بالخوف من هذا الرجل : لا يا قبطان ! لم يمر أحد اليوم .

– حسناً .. افتح عينيك يا جيم ، سأعطيك قطعة نقدية فضية إذا لمحت بحاراً بساق واحدة يصعد إلى الفندق وسارعت بإخباري .

فقلت مندهشاً :

– بحار بساق واحدة ؟

– نعم .. وأمسكْ لسانك ، لأني أكره الثرثارين ، إن هذا البحّار ذا الساق الواحدة يشغل بالي .

أثناء الليالي العاصفة كنت أقبع في الفندق أتخيل هذا البحار ذا الساق الواحدة ، وأضفي عليه مئات الصفات الشيطانية ، وأفترض حيناً أن ساقه قد قطعت من الركبة ، وطوراً أتخيلها قطعت من الحوض ، أو أتصوره مخلوقاً عجيباً ولد بساق واحدة منغرسة في

وسط جسمه ، وقد أستيقظ مرعوباً وأنا أتخيله يطاردني في أرجاء الفندق ، إن كسب قطعة فضية ليس أمراً سهلاً هذه الأيام ..

ولكن هذا السر الذي باح لي به القبطان أزال شيئاً من الرهبة التي كنت أحسها تجاهه ويحسها كل من يقترب منه .

لم يشعر أحد من الحاضرين بالسكينة في وجود هذا القبطان الذي كان يروي حكاياته المخيفة عن مغامراته في أعالي البحار ، وتدور كلها حول المشانق المنصوبة للمجرمين ، أو الأغلال التي يصفد بها السجناء ، أو العواصف التي تحطم السفن ، أو المعارك التي تدور حول جزيرة " السلحفاة " والمناطق المجهولة من أميركا الجنوبية .

وكانت تتخلل حكاياته أغانٍ قديمةٌ من أغاني البحّارة ، ويطرق بيديه على الطاولة ليضبط ألحانها ، وهو يلتفت حواليه وقد جحظت عيناه ، مما يضطر السامعين إلى الغناء معه خوفاً من شتائمه .

وإذا تحرك أحدهم للخروج صرخ به بصوت رهيب :

– لا أسمح لأحد بالخروج وأنا أغني .

قال أبي ذات مرة :

– سنضطر إلى إغلاق الفندق إذا استمر الحال ، فالناس قد سئموا معاملتهم كالعبيد وإهانتهم في كل لحظة .

فتحسرت أمي ووافقته على قوله ، ولكنها أضافت بأن وجود القبطان هنا يجلب الزبائن المتعطشين إلى الحكايات العجيبة التي يرويها ، وهي تختلف عن حكايات الصيادين المتشابهة كل يوم .

لو أن لغة هذا القبطان تخلو من الفحش ، وحكاياته أقل فزعاً ، مما يدل على أنه قضى حياته بين المجرمين ، لاستمعتُ إليها بنفسي ..

إني فتى إنكليزي ، وأحب من ثَمَّ البحر بشغف كبير ، وأرى الرحلات والاكتشافات أعظم شيء في الحياة ، وأجدر ما يملأ الإنسان بها حياته . وحينما كان صوت القبطان يردد " إنهم خمسة عشر فوق صندوق ميت " أتخيل نفسي مسافراً على ظهر سفينة كبيرة وسط الأمواج الصاخبة .

كانت مجموعة من الفتيان قد التفوا حول القبطان يُصغون إلى حكاياته معجبين ، فقال أحدهم : هذا بحار حقيقي ، وإن الرجال من أمثاله هم الذين بنوا مجد إنكلترا فوق البحار .

وكنت أميل إلى هذا الرأي .

انقضت سنوات على هذه الشاكلة ، وأصبح القبطان لا يدفع أجرة إقامته إلا بعد عناء ، ثم جاء يوم لم يدفع فيه شيئاً .

لم يجرؤ أبي على مطالبته مباشرة ، فكان يداوره ويحاول أن يسوق الحديث إلى موضوع الأجرة ، فيرى احمرار وجه القبطان والغضب المسيطر عليه ، فيجزع منه ويمضي إلى غرفته ، وأظن أن الرعب الذي سببه القبطان لأبي كان أحد الأسباب في تعجيل وفاته .

وتدهورت صحة أبي بسرعة ، ولكني قد بلغت الخامسة عشرة وأصبحت فتى قوي البنية ، قادراً على إدارة الفندق وتعويض والدي ، وكانت مشاغلي كثيرة ، بحيث لم يعد لدي الوقت للالتفات إلى ضيفنا الثقيل كما كنت أفعل من قبل .

ولكن حدثاً هاماً اضطرني إلى الاهتمام به . كان ذلك ذات صباح من أيام كانون الثاني والشمس لم ترتفع في الأفق بعد ، فنهض القبطان أبكر مما اعتاد عليه ، ومضى نحو الساحل حاملاً هراوته ومنظاره النحاسي تحت إبطه .

وكانت أمي في غرفة أبي ، وأنا أعد الطعام ، حينما فتح الباب ودخل رجل أراه لأول مرة .

كان ممتقع الوجه ويده منقوصة أصبعين ، ولا يرتدي ثياب البحّارة ، ولكن هيئته تدل على أنه قضى معظم حياته في البحر . فدنوت منه وسألت عما يريد ، فقال وقد جلس إلى إحدى الطاولات : كثيراً من الأشياء ... هل يجلس رفيقي بيل إلى هذه الطاولة ؟

فأجبته : لا أعرف شخصاً بهذا الاسم ، هذه طاولة قبطان يقيم في هذا الفندق .

فقال : إنه صديقي القبطان بيل ، وهو إنسان حسن المعشر ، هل يوجد في خده الأيمن أثر جرح كبير ؟ أليس كذلك ؟ لم أخطئ إذن ؟ وهل هو هنا الآن ؟

فقلت :

– لا .. ولكنه سيعود بعد قليل .

– كم سيكون مسروراً برؤيتي هذا الصديق بيل !

قال الرجل هذه العبارة بابتسامة ماكرة ولهجة ساخرة .

ووجدت من واجبي أن أعلم القبطان بهذه الزيارة غير المرتقبة .

وكأنما قرأ الرجل الغريب على ملامحي ما يدور بخاطري ، فنظر إلي نظرة تهديد وأمرني بالبقاء ، وقال بصوت مرح :

– أنت فتى طيب ، ولكن واجب الصغار إطاعة أمر الكبار ، والنظام ضروري في الحياة ، ولو أنك أبحرت مع بيل لتعلمت الطاعة والنظام ، ولكن ، ها هو صديقي بيل مقبلاً ومنظاره تحت إبطه.. سأختبئ وراء الباب لأفاجئ صديقي بيل !

قال هذا وجرني معه وراء الباب المفتوح ، ولم أستطع تخليص ذراعي التي قبض عليها بقوة ، وشعرت بالخوف لأنه وضع يده على مقبض هراوته ليستل منها السيف بأسرع ما يكون .

ودخل القبطان وصفق الباب وراءه ، وتوجه دون أن يلتفت إلى الطاولة التي وُضع عليها غداؤه .

قال له الغريب بصوت حازم : والآن يا بيل ؟

والتفت القبطان وقد شحب لونه ، وكانت نظرته توحي بأنه قد رأى شبحاً شيطانياً . وأعاد الغريب قوله بلهجة ساخرة :

– لا ريب أنك تذكر أحد رفاقك على السفينة يا بيل !

وتمتم القبطان وهو يلهث :

– الكلب الأسود ؟

– نعم ، الكلب الأسود ذاته ، الكلب الأسود وقد جاء يسأل عن أحوال رفيقه بيل بعد أن فتش عنه زمناً طويلاً .. آه يا صديقي ! كم مرت علينا من مغامرات بعد أن فقدتُ هذين الإصبعين .

فقال القبطان بصوت حازم وهو يحاول السيطرة على نفسه :

– لقد عثرتَ عليَّ الآن ، فماذا تريد ؟

فضحك الكلب الأسود متظاهراً بالإعجاب :

– ما أذكاه بيل هذا ! إنه يفهم من الغمزة !

ولكن لنتحدث بصراحة كما يفعل الأصدقاء القدامى .

وجلس الكلب الأسود بحيث لا يغيب القبطان عن بصره ، ثم أمرني :

– اتركنا الآن يا فتى !

فابتعدت إلى ناحية المكتب ، ومن الباب المفتوح – بطلب من الكلب الأسود – كانت تصلني أصواتهم ولكن لا أفهم معناها .

وارتفعت هذه الأصوات بالتدريج حتى سمعت القبطان يزأر :

– لا .. لا .. لننته من هذا الأمر ، إذا وصل الأمر إلى حبل المشنقة فليكن ... ولكن لننته منه .

وسمعت ضوضاء انقلاب الكراسي والطاولات وصليل سيفين ، ثم تبع ذلك صرخة ألم .

واندفعت إلى القاعة لأرى الكلب الأسود وهراوته ذات النصل بيده وكتفه ينزف دماً ، وهو يجري والقبطان يطارده .

وعلى الرغم من جرحه فقد اختفى وراء الهضبة في أقل من نصف دقيقة .

وظل القبطان يرتجف من الغضب وهو يمسح جبهته بيده ، ووجهه قد أصبح أزرق قاتماً ، وكادت عيناه تخرجان من محجريهما ، وناداني بصوت مخنوق :

– الماء .. عليَّ بالماء .. يجب أن أغادر المكان حالاً . واستند إلى الجدار ، فاندفعت إليه أسنده ، ولكن قبل أن ألمسه انهار على الأرض ، وصرخت وقد طار صوابي : النجدة ، القبطان مجروح .

وسارعت أمي إليَّ ، ومن الطابق العلوي وصلني صوت أبي الضعيف يسأل عن سبب هذه الضوضاء .

كانت عينا القبطان مغلقتين وهو يتنفس بصعوبة وقد ازرق وجهه . فسكبت الماء على وجهه ، وحاولت أن أسقيه فلم أستطع فتح فكيه المطبقين .

قالت أمي وقد سمعت وقع حوافر فرس الدكتور ليفرسي :

– افتح بسرعة يا جيم ... يا لحسن حظه !

ودخل الطبيب القادم لعيادة أبي مسرعاً ، فأخذت أروي له ما حدث بينما هو يبحث في حقيبة أجهزته ويقول :

– ليس هذا الرجل جريحاً ، إنها أزمة قلبية .. اصعدي يا سيدة هوكنس إلى غرفة زوجك فهو بحاجة إليك ، وأما هذا الشخص فإن حياته لا تستأهل الإنقاذ ، ولكن واجبنا أن نمد إليه يد المساعدة .

وكشف الطبيب عن ذراع القبطان فإذا عضلاته المفتولة قد وشمت بالتصاوير والكتابات ، وتمثل إحداها رجلاً معلقاً بحبل المشنقة ، وأسهل جملة قرأناها تقول :

" بيلي بونز يفعل ما يشاء "

فقال الطبيب :

– يا لها من حكمة خالدة تجسدها هذه الصورة وتتنبأ بها ! .. أمسك الوعاء يا جيم ، ألا تخاف من منظر الدم ؟

– لا يا سيدي .

فقال الطبيب وهو يغرس مبضعه :

– حسناً . سترى الآن لون دم المدعو بيلي بونز .

مرت دقائق قبل أن يستعيد القبطان وعيه ، وظهرت عليه السكينة حين رآنا حوله ، ولكن سرعان ما امتقع لونه وهو يصيح : الكلب الأسود .. أين الكلب الأسود ؟

فأجابه الطبيب وهو يجمع أدواته : لا كلاب هنا سواك ، وإذا لم تقلع عن الشراب فسوف تموت ميتة الكلب .. ولن ينجدك أحد يا سيد بونز .

فقاطعه القبطان وهو يقطب حاجبيه : ليس هذا اسمي .

– عفواً ... لقد ظننته اسمك ، هذا اسم قرصان كما أعتقد ، ولكن استندْ إلى ذراعي ، يجب أن تنام في سريرك ، وهذا أفضل شيء تفعله ، ولكن أحذرك فالخمر هي الموت .

فهز القبطان كتفيه استهزاء ، فقال الطبيب بحزم :

– لا يهمني موتك أو حياتك .

الفصل الثاني
البقعة السوداء

قال لي القبطان بصوت ضعيف وهو يتوكأ على ذراعي ، ونحن نتمشى أمام الفندق : لاريب أنك صديقي الوحيد يا جيم ، فأنت الذي اعتنيت بي أثناء مرضي ، وسقيتني الدواء ، وحملت إليَّ الطعام ، ولكن يجب أن أغادر هذا المكان خلال يومين قبل أن يرسلوا إلي " البقعة السوداء " .

وامتقع لونه ، وهو يلفظ هذه العبارة ، ثم قال : نعم ، البقعة السوداء ، إن الكلب الأسود رجل شرير ، ولكن الأشرس منه أولئك الذين أرسلوه ، وهم تافهون لم يستطيعوا الحفاظ على مالهم ، ويريدون الآن الحصول على ما ليس لهم ، وأما أنا فلم أبذر

مالاً أبداً ، وسوف أخدعهم مرة ثانية ، وأضللهم مرة أخرى ، فإذا بحثوا عني هنا أكون هناك .

جلس القبطان فوق مقعد حجري أمام الفندق وقال :

– إذا أرسلوا إليَّ (البقعة السوداء) ، فذلك من أجل صندوقي القديم .. هيا أسرع وناد الطبيب والقضاة والناس جميعاً وكل البحارة في فندق " الأميرال بنبو " .

لقد كنتُ مساعد القبطان فلنت ، والوحيد الذي يعرف .. الذي أخفى .. لقد أخبرني بذلك فلنت في سافانا قبل أن يموت .. كما أُخبركَ الآن .. جيم ، لا تخبر أحداً بذلك إذا لم يرسلوا إليَّ البقعة السوداء .

وسألته وأنا حائر ، فهل كان القبطان يهذي أم لا ؟ :

– ما هذه البقعة السوداء ؟

– البقعة السوداء هي إشارة متعارف عليها .. وسأشرح لك ذلك إذا أرسلوها .. ولكن افتح عينيك جيداً ، فإذا رأيت الكلب الأسود أو بحاراً بساق واحدة فسوف أكافئك ، ستكون المكافأة أن

أقتسم معك بالعدل .. كلام شرف ، أعطني شيئاً من الخمر مقابل جنيه من الذهب .

فقلت له :

– لا أريد منك سوى الأجرة المتأخرة عليك ، وأذكرك بأن الطبيب حرّم عليك الخمر .

فقال بصوت هائل : وماذا يفهم الطبيب .

ثم استند إلى الحائط ، فدخل الفندق وبحث عن زجاجة خمر ، وجلس إلى الطاولة ووضعها أمامه ، وبجانبها غرس سكيناً كبيرة على الرغم من تحذير الطبيب لي بأن الخمر قاتِلَتُهُ ، إلا أني لم أجرؤ على الاقتراب منه ، وكنت مشغول البال بأمور أهم منه ، فقد توفي والدي منذ أربعة أيام ، وهدَّ قواي تعب الجنازة والحزن على أبي وإدارة الفندق ، فوقفت مستنداً إلى الباب أرقب الأفق والضباب يغمره ، وقلبي عامر بالحزن على والدي ، فرأيت في الطريق رجلاً يدنو ببطء وهدوء .

كان رجلاً قد أحنت ظهره السنون ، وبحاراً هرماً ممزق الثياب ، أحدب الظهر ، أسدل على عينيه قبعة عتيقة ، ويمشي

متلمساً الطريق بعصاه كما يفعل الأعمى ، ولم أر في حياتي شخصاً مخيفاً مثله ، فوقف أمام الفندق قائلاً : يا أهل الخير والإحسان ، تصدقوا على فقير أعمى ضحّى ببصره في سبيل الأوطان ، وقولوا لي أين أنا الآن ؟

فقلت له في الحال : أنت الآن في خليج بلاك هيل أمام فندق " الأميرال بنبو " أيها الشيخ .

فأجاب الأعمى فرحاً : صوت فتى .. صوت حسن ، هلاّ أعنتني على الدخول يا صديقي الشاب ؟

على الرغم من الاشمئزاز الذي انتابني ، إلا أن الرحمة به تغلبت عليَّ ، فأخذت بيده ، فقبض على يدي بقوة هائلة ، وحاولت أن أتخلص منه فلم أستطع ، وقال لي الأعمى بصوتٍ آمرٍ :

– خذني إلى القبطان حالاً يا فتى وإلا كسرت ذراعك !

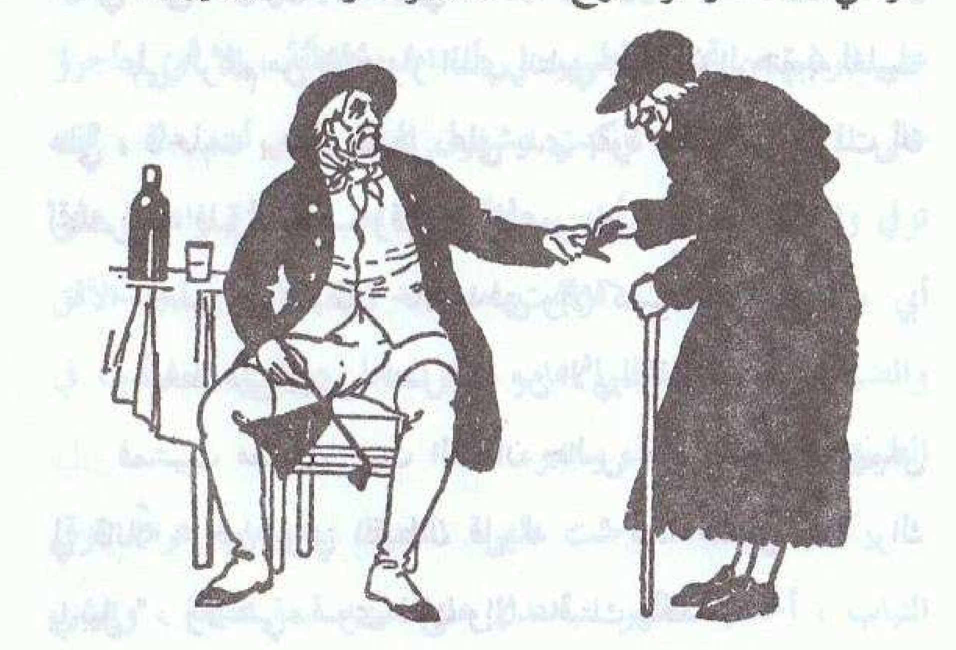
وضغط على يدي ، فصرخت من الألم ، فقال : امشِ !

فمشيت معه إلى حيث القبطان جالس أمام الطاولة ، فهمس لي قائلاً : حين يراني القبطان قل له : " هذا صديق جاء يراك يا بيل " . ولا شيء سوى ذلك وإلا عاقبتك هكذا .

ولوى ذراعي فكاد يغمى علي ، ومن شدة الخوف صرخت بالجملة التي رددها الأعمى . فرفع القبطان بصره لرؤيتنا ، وحاول أن ينهض ولكنه سقط من الإعياء .

فقال له الأعمى بصوت خشن : ابق حيث أنت يا بيل ، ومد يدك اليسرى إلى الفتى ، فليست هذه زيارة مجاملة ، بل زيارة عمل .

ومد القبطان يده ذاهلاً ، فوضع فيها الأعمى شيئاً ما ، وترك ذراعي فجأة ، وقفز خارج الفندق بسرعة ودقة عجيبتين ..



وبقيت واقفاً كأني مسمر إلى الحائط ، وصوت عصاه التي تضرب الأرض تدل على ابتعاد خطاه . وظل القبطان واقفاً مثلي ، وقد ارتسم على وجهه شعور بالاشمئزاز ، ثم فتح يده ونظر فيها ، والتمع على وجهه بريق من الفرح ، واحمر وجهه وهو يقول بصوت متقطع : لقد أمهلوني حتى الساعة العاشرة ، إنها الرابعة الآن ، وخلال ست ساعات سنبتعد كثيراً ، نعم .. سنهرب منهم يا جيم ، سنهرب منهم .

وهبَّ واقفاً وقد تقلصت يداه وكأن قواه كلها تجمعت فيهما ، واضطربت ساقاه ، فسارعتُ إلى مساعدته ، لكنه هوى إلى الأرض وهو يزمجر . ونظرت إليه مذعوراً ، لقد فارقته الحياة ..

استطعت بعد جهد جهيد أن أنادي أمي ، واستطعنا أن نحرك الجثة ، نعم لم يكن سوى جثة هامدة ، وتأملته ، ولم يكن يوجد سبب للتعلق بهذا الرجل المتوحش ، ولكن غلبني البكاء ، ولعل وفاة أبي والحزن الذي ملأ قلبي لفقده قد جعلاني شديد الحساسية لمشاهد الموت ، وربما خالط ذلك بعض الشفقة على هذا القرصان الذي لقي نهاية فاجعة .

سرعان ما سيطرت على نفسي ، وأطلعت أمي على كل ما حدث ، وأعدت على سمعها كلام القبطان ، وما نصحني به من إحضار القضاة حالاً ، فقالت أمي وهي ترتعد : لا تتركني يا ولدي ، إذا تركتني في هذا المنزل العامر بالأشباح أموت من الخوف .

فقلت لها بعد أن ترددت لحظة : سنذهب معاً ، سنمضي إلى القرية لطلب النجدة ، ومن هناك نحضر الشرطة ونتصل بالدكتور ليفرسي .

فهتفت أمي : نعم ، نعم .. لنمض ، هذه الجثة الممددة في القاعة ، وهذا الأعمى الذي لم يبتعد كثيراً عن المكان ، وكل هؤلاء الناس الذين قتلوا القبطان سيقتلوننا حتماً .

كان الذعر قد سيطر علينا ، فأمسكت بيد أمي وجرينا في الطريق إلى القرية ، وضباب المساء البارد يحيط بنا ، فالقرية لا تبعد سوى مئات الأمتار عن الفندق ، وهي لحسن الحظ في الاتجاه المعاكس للطريق الذي جاء منه الأعمى . وطرنا بأجنحة الخوف ، فوصلنا الساحة العامة للقرية بعد دقائق .

ولكن لسوء حظنا لم يجرؤ أحد من هؤلاء الرجال والنساء أن يصعدوا معنا إلى الفندق ، وكأنما يتشاءمون أو يخافون من هؤلاء المجرمين ، ولم يكن اسم القبطان فلنت مجهولاً لدى الصيادين . فقد رأى الكثير منهم سفينة تحوم في الساحل المجاور الذي يدعى " حفرة كيت " وكل ما استطاعوا أن يفعلوه لنا هو إخبار السلطات في القرية المجاورة .

وانطلق بعض الرجال على خيولهم يستدعون الدكتور ليفرسي والقاضي تريلوني اللذين يسكنان في الجهة المقابلة للفندق .

لكن الذعر الذي أصاب أهل القرية أثار السخط لدى والدتي ، فصرخت بهم : لم يأتِ أحدكم لعزائي في وفاة زوجي ، وكنت أتمنى لو أرى هذه الوجوه ، ولكنني الآن لا حاجة بي إلى رؤية هذه الوجوه القبيحة بعد اليوم .. فيالكم من جبناء ! فلا حباً ولا كرامة ، سوف أمضي مع ولدي لأفتح صندوق القبطان ، ولو خاطرنا بحياتنا ، لنأخذ حقنا منه أجرة إقامته لدينا ، لا أريد لولدي أن يُفرّط في مال أبيه .

فقال لها بعض الرجال : إنه لجنون حقيقي أن ترجعي إلى الفندق يا سيدة هوكنس.

ولكن أمي أصرت على رأيها ، وكنت أتحرق فضولاً لمعرفة محتوى ما أدعوه " وصية القبطان " ، فعزمت على مرافقتها إلى الفندق .

كانت عودتنا إلى فندق " الأميرال بنبو " عودة سريعة صامتة ، فقد تجنبنا الطريق الواسعة المضاءة بنور القمر ، وتسللنا عبر الدروب الضيقة ، إذ من الواجب أن نسارع إلى البحث داخل الصندوق ونعود قبل أن يرانا أحد .

وصلنا فأغلقنا باب الفندق وراءنا ، وجذبتُ الترباس ، وأغلقت النوافذ الخشبية ، وتقدمنا أنا وأمي إلى جثة القبطان ، وقد التصق أحدنا بالآخر يستمد منه الشجاعة .

وفتشت جيوبه كلها وأنا أرتجف ، فلم أجد مفتاح صندوقه ، ووجدت بعض القطع النقدية وخيطاً وإبرة وعلبة دخان وسكيناً وبوصلة وقداحة ...

وما كدت أنهض يائساً من العثور على المفتاح حتى وجدت قطعة ورق بجانب جثة القبطان ، فبسطتها ، فإذا وجهها الأول دائرة سوداء ، وعلى وجهها الثاني قد كتب :

" مهلتك حتى العاشرة مساءً ".

كانت تلك هي البقعة السوداء ..

ونظرنا إلى ساعة الحائط ، فإذا هي تشير إلى السادسة ، فتنفسنا الصعداء ، ورجعت أفتش جيوب القبطان بتؤدة ، فلفتت أمي انتباهي إلى أن القبطان قد يحمل المفتاح معلقاً بخيط في عنقه .

ففتحت ياقة قميصه بكثير من الاشمئزاز ، فوجدت المفتاح المطلوب مربوطاً بخيط متين ، فقطعته وصعدنا الدرج دون تأخير .

كان الصندوق في المكان نفسه الذي وضعته منذ سنوات ، وهو صندوق مما اعتاد البحارة استخدامه ، وقد حفر الحرف (ب) على غطائه بالحديد المحمَّى .

تناولت أمي المفتاح وأدخلته في القفل وأدارته مرتين ، ثم فتحت الغطاء بحركة سريعة .

كانت في الأعلى بذلة بحار مطوية نظيفة ، وتحتها مسدسان وعدة بوصلات بقواعد نحاسية ، ومحارات آسيوية غريبة الشكل ، وساعة إسبانية عتيقة ، وقضيب من الفضة وأشياء أخرى ، فقالت أمي : لا أجد شيئاً ... إلا إذا رفعنا هذا المعطف البحري القديم .

وجذبتُ المعطف فإذا تحته صرة من القماش وكأن فيها أوراقاً ، ولكن وجدنا قطعاً ذهبية متنوعة الأحجام ومن بلاد مختلفة .

قالت أمي : سآخذ من القبطان قيمة ما هو مدين لنا به فقط ، ولأنني سأحسب بالجنيه فينبغي أن نعزل هذه النقود .

كان العمل طويلاً وشاقاً ، ويداي ترتجفان من القلق ، فقلت لأمي : لنأخذها جميعاً ، وحين نمضي إلى القرية نعيد الحساب ، ونسلم الباقي إلى القاضي .

فتمتمت أمي : لست سارقة ، ولن آخذ سوى حقي .

فطلبت منها السكوت وقلت لها : خطوات على الطريق ، إنها خطوات الأعمى المنتظمة .

طُرق الباب فتردد صداه في قلبي ، وحبسنا أنفاسنا كي نصغي ، وحاول أن يفتح الباب فأدار مقبضه عدة مرات فلم يستطع ، وسمعنا خطوات الأعمى تبتعد .

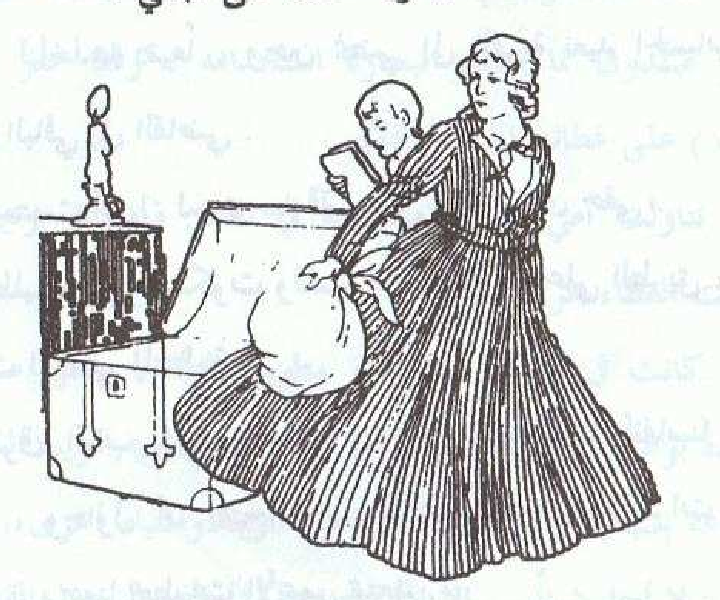
فقلت لأمي : يجب أن نذهب ، سينذر الأعمى أصحابه ، وسرعان ما نجدهم هنا بعد دقائق .

ولكن أصرّت أمي على أخذ الأموال التي تساوي الأجرة المستحقة على القبطان ، ولم تصغ إلى قولي .

ولكن سمعنا صوت صفارة بعيدة فقلنا بآن واحد : " لقد جاؤوا " .

وحزمت أمي في مئزرها الجنيهات التي حَسَبتها وقالت :

– سآخذ هذه فقط .. ولا آسف على الباقي !



فقلت لها : سآخذ الصرّة المزفتة معي .

وخرجنا بعد دقائق ، وظل الشمعدان مضاءً بجانب الصندوق الفارغ ، ولم نغلق باب الفندق ، وانطلقنا داخل الأجمات المحاذية للطريق ، وأسرعنا إلى الوادي الذي يغطيه الضباب .

وكنا في منتصف الطريق إلى القرية حين سمعنا أصوات خطوات سريعة ، وكان أحد الرجال يحمل فانوساً مضاءً ، يلقي بنوره الأصفر . فتوقفت أمي وأسنانها تصطك من الخوف وركبتاها ترتجفان ، وتشبثت بذراعي وهي تقول : اذهب ، لست قادرة على المشي .

إن هذا الضعف المفاجئ سيكون سبب هلا كنا ، وكنا على خطوتين من جسر يعبر فوق جدول صغير ، فجذبتُها حتى هبطنا الدغلة القريبة من الجدول ، وكانت قوس الجسر واطئة في هذه الضفة ، فدفعت أمي تحتها ، ثم زحفتُ كما يفعل الهنود الحمر وقلبي يخفق بشدة ، واختبأتُ وراء شجيرة أُراقب ما يجري .

الفصل الثالث

الخريطة



ما كدت أستقر في مكاني حتى وصل الأعداء . كانوا جميعاً يجرون ، وثلاثة منهم أمسك بعضهم بيد بعض ، وفي وسطهم ذلك الأعمى ، وقد عرفته من صوته ، وكانوا ثمانية يحمل أحدهم فانوساً يتجول بضوئه هنا وهناك .

توقفوا أمام الفندق وارتفع صوت الأعمى آمراً : اكسروا الباب .

فقال أحدهم : لا حاجة لكسره يا (بو) إنه مفتوح .

– ادخلوا بسرعة .

واندفع خمسة رجال إلى داخل الفندق ، على حين بقي الاثنان مع (بو) في الطريق . فكان الأعمى يخبط الأرض بعصاه ويصرخ

وكأنما أصيب بالسُّعار . وارتفع من الفندق صوت أحدهم يقول :

– بيل ميِّت .

فصرخ فيهم الأعمى : وإن يكن ! فتشوه خذوا المفتاح ، ابحثوا عن الصندوق !

وعاد إليه النداء من الداخل : جيوبه فارغة والصندوق مقلوب !

فصرخ الأعمى : لقد سبقونا .. فتشوا جيداً .. لابد أن تجدوا شيئاً .

فقال أحدهم : وجدنا النقود .

فزمجر الأعمى الذي كاد يصاب بالجنون : النقود ! أيها الحمقى .. ابحثوا عن ورقة فلنت ، ربما كانت في فمه .. فتشوا الجثة جيداً ... آه لو كنت أرى .

وناداه أحدهم : لا شيء .

ولاحظت أن حماستهم قد ضعفت لرؤية النقود ، فقد أطفأت جشعهم هذه القطع الذهبية التي عثروا عليها ، ولكن (بو) يقفز كالمجنون :

– آه .. لقد فعلها أصحاب الفندق .. كان يجب ان أقتلع عيني ذلك الفتى ، ابحثوا عنهم ، قد يكونون في الفندق أو قريباً منه .. ابحثوا في السقيفة والقبو والدغلة ! يجب أن تجدوهم !

وكان يتناهى إلى سمعي صوت الأعمى يحثهم والكراسي تنقلب والطاولات تتكسر . إن مخبأنا هنا ليس آمناً ، ولكن ماذا كان يحدث لو أننا اختبأنا في إحدى حجرات الفندق ؟

وعاد الرجال إلى الطريق واحداً بعد الآخر وهم يقولون : لم نجد شيئاً .

والأعمى يصيح بهم : فتشوا الدغلة ! والطرقات ... هيا .. أسرعوا .

حينئذٍ سمعت صوت صفارة صادراً من ناحية القرية ، وكنت أظن أن صوت الصفارة الأول إشارة من الأعمى إلى رفاقه .. ولكن حين لمحت اضطرابهم لسماعهم صوت الصفارة هذا ، أدركت أنه إشارة خطر عليهم .

فقال أحد اللصوص : لقد صفر (ديك) مرتين إشارة خطر ، لنهرب ..

وصرخ الأعمى : ديك جبان يخاف من ظله ، لا تصغوا إليه يا رفاق وابحثوا في المنطقة حولنا ، لا يمكنهم الابتعاد ، ابحثوا عنهم أيتها الكلاب الضالة !

وفتش اثنان منهم شجيرة قريبة ، والأعمى يصيح : إن تحت أيديكم ما يجعلكم أغنياء كالملوك .. أيها الجبناء .. آه لو كنت مكانكم .

فقال أحدهم : لدينا النقود الذهبية ، وهذا يكفي ، ما الذي يجعلك تنبح كالكلب المسعور ؟ الورقة مفقودة ، ولا تهمنا هذه الورقة ، هيا لنذهب ..

فانفجر الأعمى بالصراخ والسباب ، وجعل يلوح بعصاه لعله يصيب أحداً من رفاقه ، واشتبكوا فيما بينهم ، حتى سمعت أصوات الخيل قادمة من الهضبة القريبة من القرية . وانطلقت رصاصة في الهواء ، فكان لها فيهم تأثير سريع . إذ تفرق أصحاب (بو) في كل اتجاه ، بعضهم سلك الطريق الذي جاء منه ، وبعضهم هبط السهل إلى ساحل البحر .

ظل (بو) جامداً لحظة وقد أذهله الرعب ، ثم جعل يضرب عصاه على غير هدى ، ويمشي خطوة هنا وخطوة هناك ، وهو يتوسل إلى أصحابه : ديك ، الكلب الأسود ، جوني ، سام ، أعطوني يدكم ، لا تتركوا صديقكم (بو) خذوني معكم !

وظهر أربعة فرسان أو خمسة على الطريق ، وذعر الأعمى لصوت قدومهم ، وأراد أن يرمي بنفسه إلى الدغلة ، ثم التفت يجري ، فواجه أول فارس يجري بأقصى سرعة ، ولم يستطع تجنبه فداسته قوائم حصانه وسقط ووجهه إلى التراب .

وجريت إلى الطريق ، وتوقف الفرسان ، فسارعت لرؤيتهم مبتهجاً فقد كانوا من رجال الجمارك الذين سمعوا بوجود مركب في " حفرة كيت " فظنوا أنهم مهربون ينقلون بضعائهم ، أما القروي الذي ركب فرسه ليأتينا بالنجدة ، فقد صادفهم على الطريق وأطلعهم على ما يجري ، فالحمد لله الذي هيأ لنا مَنْ أنقذنا من الموت أنا وأمي ..

ورويت ما حدث باختصار لضابط الجمارك السيد (دانس) على حين تابع رجاله مسيرهم إلى " حفرة كيت " .



وأقبل أهل القرية بأعداد كبيرة بعد زوال الخطر ، فاعتنوا بوالدتي وأنعشوها . وأما الأعمى (بو) فقد فتشوا ثيابه ولم يجدوا ما يدل على هويته ، ولم يعرفوا من أين أتى .

أظهرتُ للسيد دانس الصرة المحاطة بقماش مزفت ، وبينت له أني أريد تسليمها إلى الدكتور ليفرسي الذي هو أحد أعضاء هيئة الشرطة في (بلاك هيل) .

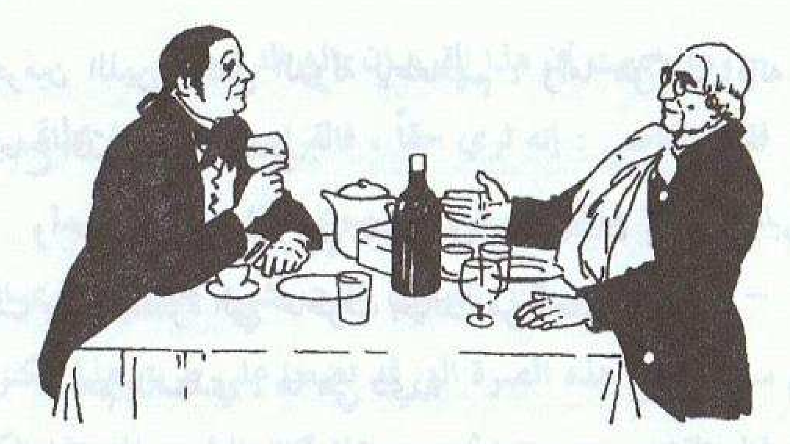
فقال لي السيد دانس : أنت على حق وأظن أن المركب قد أبحر .

وقد جرت الأمور كما توقع السيد دانس ، فلم يجد رجال الجمارك المركب في موقعه . وبعد ساعتين كنت والسيد دانس واثنان من رجاله أمام منزل الدكتور ليفرسي ، ووضع الفندق تحت حراسة رجال الجمارك ، ومضت أمي لتسكن في القرية .

وحين دخلنا منزل الدكتور ليفرسي ، كان قد أنهى عشاءه مع القاضي تريلوني .

كان القاضي رجلاً قوياً طويل القامة طيب القلب ، تلوح علائم الرضا والصلاح على وجهه ، وليس فيه سوى عيب واحد هو الثرثرة ، ولكن لا يجرؤ أحد على التصريح به ، فيقال عنه إنه : " متحدث بارع ".

وأما الدكتور ليفرسي فهو رجل في الخمسين ، وقد ابيضّ شعره ، ولكنه حافظ على فتوته ونشاطه لاهتمامه بصحته ، وكانت نظرته الحادة تخجل محدثيه ، وقد تثير الخوف في قلوب بعضهم .



حينما أدخلتنا الخادمة إلى المكتبة الكبيرة ، كان الطبيب والقاضي يتناولان الشاي ، فقال القاضي مرحباً : تفضل يا سيد دانس ، إني سعيد لرؤيتك !

ونهض الطبيب إلى لقائنا ومد يده مصافحاً : أي ريح طيبة ساقتكم إلينا ؟ وكيف اصطحبت معك صديقي جيم ؟

وبدأ ضابط الجمارك يروي ماحدث بكل تفاصيله ، فكان القاضي تريلوني يتمشى في الغرفة جيئةً وذهاباً ، ويتوقف فجأة وينتزع الغليون من فمه عند المقاطع الهامة .

وحين أنهى الضابط حديثه قال له : لقد أحسنت بدهسكَ ذلك المدعو (بو) كما يُدهس العنكبوت ، فالسجون مملوءة

بالمجرمين الذين تتكفل الدولة بإطعامهم ، وأما هوكنس فإنه فتى شجاع أُقدّره بالغ التقدير .

وأخذ الدكتور ليفرسي يدي بين يديه بحنان وقال لي : هل جئت بتلك الصرة التي خاطرت بحياتك من أجلها يا جيم ؟

– نعم يا سيدي ، ها هي ذي !

فقال الطبيب : يجب أن تأكلا شيئاً أنت والسيد دانس .

ونادى الخادم فحمل إلينا الطعام ، فتناول السيد دانس شيئاً منه ثم نهض يستأذن بالذهاب ، فقال له الطبيب : تفضل ، فإن أمامك مشاغل كثيرة ، وأما السيد جيم فسوف ينام في بيتي .

بعد أن انصرف ضابط الجمارك وأنهيت عشائي قال الطبيب مخاطباً القاضي : لا ريب أنك سمعت بالقبطان فلنت !

– نعم ، إنه أخطر قراصنة البحار ، والويل لمن يقع تحت يده ، والإسبان يخافونه أشد الخوف ، وكدت ألقاه في إحدى رحلاتي ، وذلك أني ركبت سفينة من جزيرة الترينداد ، فلحقتْ بنا بارجة حربية تنذرنا بالخطر ، وأن القرصان فلنت يحوم في المنطقة فرجعنا أدراجنا إلى الميناء .

– وهل سمعت أن هذا القرصان بالغ الثراء ؟

فقال القاضي : إنه ثري حقاً ، فالقراصنة يخاطرون بحياتهم من أجل المال ، ولا هدف لهم في الحياة سوى تكديس الكنوز .

– وإذن ، فإن كنز القبطان فلنت شيء حقيقي ، وبموافقة جيم سوف نفتح هذه الصرة التي قد تضعنا على طريق هذا الكنز .

قال القاضي بصوت واضح : إذا كان الطريق إلى هذا الكنز حقيقياً ، فإني على استعداد لأن أجهز سفينة في ميناء (بريستول) أحسن تجهيز ، وأختار لها طاقماً ممتازاً ، وننطلق بحثاً عن الكنز ولو كان في أقاصي الأرض .

قال الطبيب : هذا رائع .

وفتح الصرة ، كان فيها دفتر مذكرات لصاحبه بونز مساعد القبطان ويتردد اسمه في الصفحات الأولى مع بعض الجمل المبعثرة ، وفي الصفحات التالية سطور واضحة فيها أوصاف غير مفهومة ، وفي نهاية كل صفحة رقم يدل على مبلغ مالي ، ورقم آخر يدل على التاريخ ، كما في دفاتر الحسابات . ويضاف إليها اسم المكان أو خط الطول والعرض ، ويذكر على سبيل المثال أن مبلغ سبعين

جنيهاً مؤرخ بالثاني عشر من شهر حزيران سنة 1745 تسبقه ست إشارات ضرب ، ومعه هذه العبارة " أمام كركاس ".

وفي نهاية الحساب الممتد عشرين عاماً تجد المجموع العام مع كلمة " حصة بونز ".

فهز الطبيب رأسه وقال : لا أفهم شيئاً .

فأكد القاضي قائلاً : على العكس ، لقد فهمت كل شيء ، أمامنا دفتر حسابات بيلي بونز .

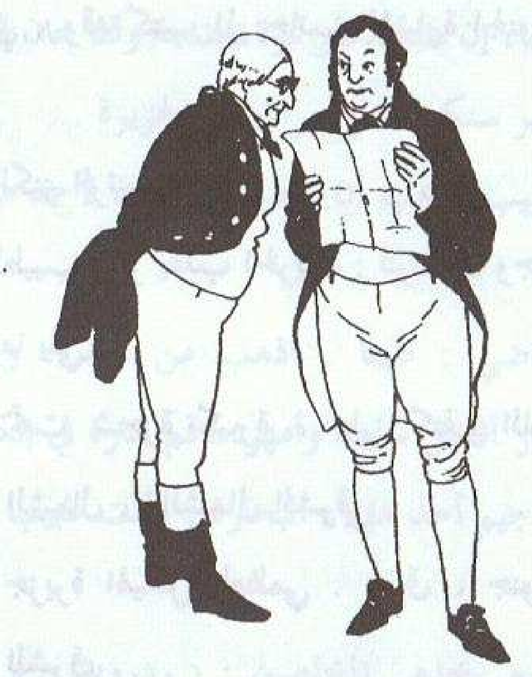
– هذا أكيد ، ولكن ما معنى إشارات الضرب هذه ؟

– إنها تدل على عدد السفن الغارقة ، أو المدن المستولى عليها ، والمبالغ تدل على حصة القرصان ، وهي تتضاعف مع ارتقائه في الرتبة ، وترى في الصفحات الأخيرة أسعار العملة من إنكليزية وفرنسية وإسبانية ، لقد كان الخبيث بونز رجلاً ذكياً ، لذلك جعله القرصان فلنت مساعده ، ولكن لنفتح الرسالة .

وفضّ الطبيب ختمها الشمعي بحرص ، فكان فيها ورقة سميكة مطوية أربع طيات ، في الجهة الأولى خارطة لجزيرة ، وفي الجهة

الثانية عدة أسطر مكتوبة بخط صغير واضح مختلف عن خربشة بيلي بونز ، وفيها معلومات إضافية ، فقال القاضي : إنها جزيرة الكنز .

وكانت خريطة مرسومة بعناية ، ويوجد أسفلها خط الطول والعرض وعمق المياه وأسماء الهضبات والخلجان وكل التفاصيل الضرورية للرسو بالسفينة في مختلف سواحل الجزيرة .



كان عرض الجزيرة حوالي خمسة أميال وطولها تسعة أميال ، وأما شكلها فيذكرك بتلك الحيوانات الخرافية التي يرسمها الخزافون

الصينيون على أوانيهم الفخارية ، وأما ميناءاها الصالحان للملاحة فتحيط بهما الصخور وكأنما أعدهما الطبيعة لذلك .

وترتفع في وسط الجزيرة هضبة عالية اسمها " اللورغينت " .

وما يلفت النظر في هذه الخريطة ثلاث إشارات ضرب مرسومة بالحبر الأحمر ، إشارتان في شمال الجزيرة ، وواحدة في جنوبها الغربي ، وقد كتب إلى جانب الإشارة الجنوبية الغربية بحبر أحمر :

" هنا الكنز الرئيسي "

قال الطبيب وهو يقلب الخريطة : لنر الآن وجهها الآخر .

وقرأنا ما يلي :

1 – تحت شجرة كبيرة ، على كتف اللورغينت باتجاه الشمال ، والشمال الشرقي .

2 – جزيرة الهيكل العظمي . شرق ، جنوب ، شرق ، الشرق .

3 – ثلاث أقدام عمقاً . شجرة كبيرة جداً .

سبائك الفضة في المخبأ الشمالي ، على عشر أذرع من جنوب الصخرة السوداء ، باتجاه الجبل شرقاً .

التوقيع ج . ف

فهتف القاضي وهو يفرك يديه : أحسنت ليفرسي .. أحسنت جيم ، هذا ما أدعوه السير على هدى ويقين ، لقد فكر القرصان بورثته ، إن هذا الكنز ثمرة ناضجة وقد حان قطافها ، قبل مرور ثلاثة أشهر سنكون على مرأى من الجزيرة .

وقال الطبيب : يجب أن أمضي إلى لندن لأجد من يخلفني في العيادة .

فقال القاضي : طبعاً . اذهب من الغد ، وسأمضي إلى بريستول لأختار أفضل سفينة وأمهر طاقم بحارة في إنكلترا كلها ، وسوف يكون جيم أحد هؤلاء البحارة ، وأنت طبيب السفينة وأنا القبطان .

وسآخذ معي خدمي المخلصين : (ردروث) و (جويس) و (هنتر) ، واثنان منهم قد ركبا البحر سابقاً ، سنقوم برحلة رائعة ، وسوف نجلب أكوام الذهب ، وستكون رحلة موفقة .

واستمع الطبيب إلى القاضي المتحمس وهو يبتسم ، ثم قال : لا ريب أن الرحلة ستكون موفقة ، ولكني خائف من أحد الناس .

فاندهش القاضي وقال : ومن هو ؟

– أنت .. فأنت غير قادر على إمساك لسانك ، وأخشى أن تبوح بالسر لأحد الناس ، ويجب ألا يبقى أحدنا وحده ، لأن القراصنة قد يعلمون أننا نملك الخريطة ، فتكون حياتنا في خطر ، فنحن لم نقبض على رفاق ذلك الأعمى بعد .

فقال القاضي : سيرافقني خادماي في رحلتي إلى بريستول ، ويبقى ردروث لحراسة جيم .. وأعدك بألا أنطق بكلمة ، وأن أكون أبكم مثل سمكة الشبوط !

الفصل الرابع
طاقم البحارة

بقيت في منزل الطبيب في حماية ردروث المكلف بمرافقة القاضي ، ومضى الرجلان أحدهما إلى بريستول والآخر إلى لندن ليقوما بالإعداد لهذه المهمة .

وانقضى شهر على ذهاب القاضي ، وكنت متشوقاً إلى سماع أخبار تحضيراته ، ولكي أشغل نفسي انصرفت إلى القراءة ومطالعة الكتب ، لأني أعيش حياة السجناء خوفاً من انتقام أحد رفاق الأعمى (بو) بعد فشل خطتهم . وكنت أحلم بالمستقبل الزاهر الذي ينتظرني ، وبتلك الرحلة الطويلة ، والمغامرات الشيقة التي سوف أعيشها في جزيرة الكنز .

وكم من مرة تجولت بخيالي في أرجاء تلك الجزيرة الساحرة !

ولقد حفظت عن ظهر قلب معالمها الجغرافية ، وكنت أخوض بخيالي المعارك ضد المتوحشين ، مما جعلني آلف مواقع هذه الجزيرة التي سأعيش فيها أخطر أيام حياتي .

ولم تخفف عني هذه الرحلات الخيالية ثقل الوقت وسأم الانتظار حتى تلقيت رسالة من السيد تريلوني . ولم تكن موجهة إليّ مباشرة فقد كتب القاضي عليها : إلى الدكتور ليفرسي ، وفي حال غيابه ، إلى توم ردروث أو جيم هوكنس . ولم يكن ردروث قادراً على قراءة الحروف المكتوبة باليد ففتحت الرسالة بشوق زائد ! وهذا نصها :

" عزيزي الدكتور !

سيكون سرورك بالغاً مثل سروري من هذه الأخبار التي أبعثها إليك ، لقد حصلت على السفينة ، وهي رائعة عمرها خمس سنوات ، يمكن توجيهها بإصبع واحدة . وحمولتها مئتا طن وتدعى (الإسبانيولا) . وأما الطاقم فهم من البحارة الأشداء ، وقد ساعدتني العناية الإلهية في مهمتي هذه .

إن صديقي القديم بلاندلي ساعدني في شراء هذه السفينة بثمن بخس ، وقد قيل لي إنه استغل حاجتي إليها ليرفع ثمنها ، ولكن تبين لي أن هذه أقاويل باطلة ، وخاصة بعد أن ذكرت له هدف رحلتي ، والسبب الذي دفعني إلى شراء الإسبانيولا " .

فتوقفت عن القراءة وقلت لردروث : لن يكون الدكتور مسروراً ، فالسيد تريلوني قد باح بالسر . فلم يعجبه انتقادي لسيده وقال : هذا حق السيد تريلوني ، وهو أدرى بالأمر .

فكتمت غضبي وتابعت القراءة :

" حينما كان العمال مشغولين بتجهيز السفينة ، كنت أنا وبلاندي مشغولين بالبحث عن طاقم لها .

ولقد وجدنا صعوبة بالغة في تجميع ستة بحارة ، ولكن شاءت المصادفة أن ألتقي بالشخص المناسب .

وذلك أنه كان يرقب العمال وهم يروحون ويجيئون على ظهر الإسبانيولا واقترب مني وبدأ الحديث .

إنه بحار قديم يدعى لونغ جونز سيلفر ، وهو يملك مطعماً في بريستول ورصيداً ضخماً في البنك ، وقد تحققت من ذلك بنفسي ،

إنه رجل ثري جاد ، ولكن صحته تدهورت بعد مكوثه مدة طويلة في اليابسة ، وقد عرضت عليه أن يكون طباخ السفينة فقبل في الحال .

كنت ستفعل مثلي إذا علمت أن سيلفر البائس هذا قد فقد ساقه في سبيل وطنه ، وكان في خدمة الأميرال الخالد " هاوك " وليس له معاش ، فياله من جحود !

إن سيلفر المذكور يعرف بحارة بريستول جميعاً ، وقد اختار خلال أيام طاقم السفينة كله ، حتى إنه استغنى عن اثنين ممن اخترت في البداية ، لأنه تبين له أنهما لا يصلحان للخدمة في رحلة هامة كرحلتنا ، بالإضافة إلى أنه استطاع العثور على مساعد لي يدعى " آرو " ورئيس للبحارة .

ولم أشأ إغضاب بلاندلي حينما اختار لي بنفسه قبطاناً خبيراً كما قال ، ولكني رفضته لأنه لم يعجبني .

المهم ... تعال إليّ حال استلامك الرسالة واصطحب معك هوكنس وردروث . أنا بانتظارك .

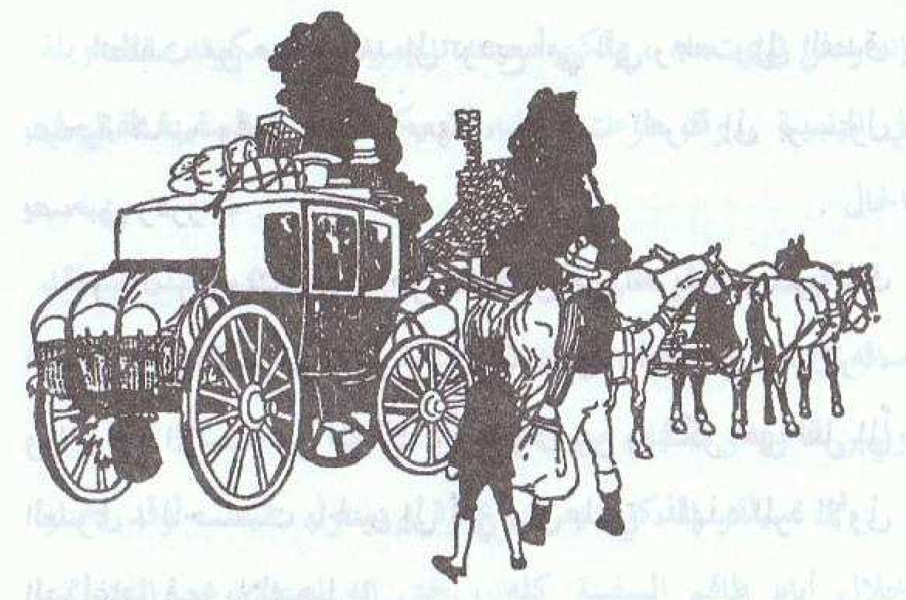
جون تريلوني " .

انطلقت من صباح الغد إلى توديع أمي التي رجعت إلى الفندق بصحبة شاب وفتاة يعملان معها ، وركبت العربة إلى بريستول يصحبني ردروث .

وكان ردروث يشكو طول الطريق من الغربة ، ويلعن تلك الأسفار التي تبعد المرء عن الأوطان ، وما فيها من المخاطر ، وما يواجه الإنسان من المهالك ، وما زال يئن ويشكو حتى نقل إليّ العدوى ، فأحسست بالحنين إلى أمي وإلى بلدتي ، فهذه المرة الأولى التي أغادر فيها بلاك هيل !

ولمت نفسي لأني لم أتمكن من السيطرة على دموعي ، لأن ما حدث لي شيء رائع ، سأقوم برحلة مع رجال شجعان ، ونعود بالغي الثراء ، ولن تحتاج أمي إلى العمل بعدها .

وغفوت على هذه الأحلام السعيدة ، ولم أستيقظ إلا حينما لكزني ردروث بمرفقه لكزة وهو يقول : لقد وصلنا .



كنا أمام بناء كبير والمدينة صاخبة من حولنا بأصواتها وحركاتها .

تبعت توم وأنا مندهش لكل ما أرى ، ومشينا قرب أرصفة الميناء حتى وصلنا إلى فندق كبير ، وكان أول من سارع إلى لقائنا السيد تريلوني مرتدياً بدلة ضابط في البحرية ، وهو يقلد بنجاح حركات البحارة ، وقال لي : صباح الخير يا جيم ، لقد وصل الدكتور ليفوسي مساء البارحة . إلى الطعام ، فكل شيء على ما يرام .

فأكلت بشهية ، إذ كان أصحابي مرحين ، وبمرح كذلك توجهت إلى مطعم " اللورغينت " .

كان المطعم واسعاً ، وكان سيلفر ضاحك الملامح ذكياً ، حسن المنظر وماهراً في استخدام عكازه ، حتى لينسى المرء أنه رجل معوّق ، وقد استقبلني بترحاب شديد أكد لي رأي تريلوني الحسن فيه . ولكن حدث أمر كاد يبدل رأيي فيه ، وذلك أنني حين كنت أقدم إلى سيلفر الرسالة وأذكر له اسمي ، نهض أحد الزبائن وخرج مسرعاً ، ولفت خروجه المفاجئ انتباهي إليه .

فعرفت فيه ذلك الرجل الذي جاء إلى فندق " الأميرال بنبو " أول مرة ، وتحدث مع القبطان ، فصرخت : إنه الكلب الأسود ، أوقفوه !

قال سيلفر : لا يهمني من يكون ، ولكنه مضى دون أن يدفع الحساب ، (بين) الحق به وأمسكه .

ثم التفت إليّ وسألني : ومن هذا الكلب الأسود ؟

– ألم يحدثك السيد تريلوني عن قضية بلاك هيل ؟

قال سيلفر وهو يتأملني : لا يمكن ! أحد هؤلاء الملاعين في مطعمي ؟ (هاري) ، (جيس) ساعدا (بين) .. مع من كان جالساً ؟ معك يا مورغان ؟ هل تعرفه ؟

– لا يا سيدي .. لا أعرفه ، هذه أول مرة أراه فيها .

– عن أي شيء كنتما تتحدثان ؟

– عن غرق إحدى السفن .

فقال سيلفر بصوت خفيض : إنه بحار ماهر ، ولكنه مغفل .

فلم أقل شيئاً ، ولعل سيلفر لمح بعض الشك في نظراتي فقال :

– يجب على بين وهاري أن يقبضا على هذا الكلب الأسود ، ماذا سيظن السيد تريلوني بي ؟ أحد القراصنة في مطعمي ؟ لو استطعت الإمساك به لأخذته إلى القبطان ، فأنت تدري يا هوكنس أني لا أعرف كل زبائني ، إنك فتى ولكني ألاحظ الذكاء في نظرتك ، ولا أستطيع اللحاق وراء هذا المجرم بعكازي ..

كان ما يقوله سيلفر واضحاً ، وحين عاد الخادمان ولم يلحقا بالكلب الأسود ، سيطر عليه الغضب ، حتى شعرت بأنه صادق لا يتصنع ، ثم التفت إليّ وقال بلهجة ندم :

– ماذا أقول للقاضي يا هوكنس ؟ لأني سأذهب إليه وأحكي له ما جرى ، ولن أكون فخوراً ، ولا أنت أيضاً إذا تركت هذا المجرم يفلت من يدي ، ولو قبضنا عليه لكانت ضربة موفقة .



ولم أنكر أني قصرت في هذه القضية ، ولم أركض وراء هذا المجرم ، وتذكرت الآن السبب الذي منعني من مطاردته ، إذ كان سيلفر في تلك اللحظة يصافحني ويشدّ على يدي ، ولم أكن حرًّ

الحركة . وبعد ساعة قال لونغ جون سيلفر مخاطباً تريلوني والدكتور : الذنب ذنبي ، كان ينبغي لي أن أختار زبائني ، ولكني لم أر في حياتي هذا الكلب الأسود ، ولم أكن أظن أن مورغان يراه لأول مرة أيضاً .

فقال تريلوني : لا تهتم بهذا الأمر ، لأننا سنبحر غداً الساعة الرابعة ، ولن نفكر بهذا القرصان ، إلى الغد إذن ، ولتكن في الموعد .

فقال وهو يودعنا : سأكون في الموعد يا سيدي .

راقبته وهو يمضي مسرعاً كأنه رجل قوي لا تنقصه ساق ، وقفز إلى خاطري أنه قد يكون ذا الساق الوحيدة الذي كان القبطان ينتظره في فندق " الأميرال بنبو " ، وقد عزز شكوكي رؤية الكلب الأسود في مطعمه ، لكن صراحته وصدقه في رواية ما حدث في مطعمه المسمى " اللورغينت " قد بددا كل هذه الشكوك .

الفصل الخامس

على ظهر " الإسبانيولا "

نُقلت أمتعتنا إلى ظهر السفينة وقد اكتمل تجهيزها بالمؤونة ، وحرص البحارة على تشميع أرضيتها وتلميعها لكي تظهر السفينة في أبهى حلة ، وتبدو وسط هذه الغابة من الصواري والسفن الراسية لائقة بمالكها وطاقمها .

وجاء السيد (آرو) لتحيتنا حينما صعدنا السفينة ، وهو بحار هرم ، أحول العينين ، يضع قرطاً في أذنيه وقد لوّحت الشمس وجهه . وبعد قليل انضم القبطان إلى مساعده الذي كان عريض الوجه أجش الصوت .

فسأل القاضي القبطان حينما جلس معنا في القاعة التي ستكون غرفة طعام لنا أثناء الرحلة : هل أنت راضٍ عن السفينة وتجهيزاتها ؟

فقال القبطان ببرودة : تبدو لي السفينة وتجهيزاتها في حالة جيدة ، ولكني لا يعجبني مساعدي ولا رجالي ولا الغاية من هذه الرحلة ، أقولها بصراحة .

فعضّ القاضي على شفتيه وسأل الدكتور مندهشاً :

– لا تعجبك الغاية من هذه الرحلة ؟ ولماذا ؟

فقال القبطان : لقد لاحظت أن الجميع على ظهر السفينة يعلمون أين نمضي إلا أنا ، وعرفت من أحد البحارة – وهذا حقي – أننا ذاهبون للبحث عن أحد الكنوز ، ولا أحب رحلة البحث عن كنز يعرف هدفها البحارة جميعاً ، هذا خطير ، كما أن مساعدي ليس طوع بناني كما يقال ، وهو كثير الألفة مع البحارة ، والحق أني كنت أفضل اختيار الطاقم بنفسي .. هل أنتم عازمون على المضي في هذه الرحلة أيها السادة ؟

فقال القاضي بلهفة : نعم .. نحن عازمون .

فقال القبطان : إذا كان الأمر كذلك فخذها مني نصيحة ، لينم بجانب هذه المقصورة الرجال الأربعة الذين اخترتهم أولاً ، ولعلهم رجال ثقات ، ثم اجعل البارود والسلاح معك بدلاً من أن تضعه في العنبر الأمامي .

فسأله الدكتور قلقاً : هل تخاف من التمرد ؟

– لا يمكنني ركوب البحر وأنا أخاف من التمرد يا سيدي ، ولكني أرى أموراً تسير على غير ما يرام ، وأنا المسؤول عن

السفينة ، وعن حياة كل شخص على متنها ، وما أطلبه منكم هو الحيطة والحذر .. هذا كل شيء .

فسأل القاضي ببرودة : سنفعل ما تطلبه ، ولكني أظنك كثير الشكوك .

فأجابه القبطان : إني أقوم بواجبي ، وإني لآسف لتلك الثرثرة التي جعلت البحارة يعرفون خط الطول وخط العرض للجزيرة المتوجهين إليها ، بل يعلمون أيضاً أن لديك خريطة عن الكنز أيضاً .

فقال القاضي بعد أن خرج القبطان : ما معنى هذا ؟ إني لم أنطق بكلمة واحدة ، لعلك أنت يا دكتور ، أو أنت يا جيم .

وتبادلت النظرات مع الدكتور فقال : المهم أن ننظم أمورنا ، وأن نجعل من الجهة الخلفية من السفينة قلعة للدفاع ، حتى إن كان هذا إرضاء للقبطان سموليت وتنفيذاً لأوامره .

وسعدت لهذه التغيرات الجديدة ، فقد كانت مقصوراتنا في الخلف امتداداً للعنبر الرئيسي ، ويصلنا مع السطح والمطبخ ممر داخلي ، وأُعدت غرفة خاصة للقبطان ومساعده .

وكان البحارة ينقلون البارود والسلاح إلى المقصورة المركزية حينما صعد لونغ جون سيلفر إلى السطح وصاح مندهشاً : ماذا تفعلون يا رفاق ؟ سوف نتخلف عن المد البحري بهذه التنقلات .

فزجره القبطان بلهجة حازمة : هذه أوامري ، انزل إلى مطبخك واهتم بطناجرك !

قال سيلفر بلهجة مرحة : سأفعل يا سيدي .

ثم ابتعد ، فأشار الدكتور إليه قائلاً : رجل شهم ، أليس كذلك يا قبطان ؟

فأجابه القبطان ببرودة : هذا ممكن .

وبعد ساعتين كانت أمواج الأطلسي تترامى على صدر السفينة ، وما أتذكره من الرحلة يبدو مغلفاً بضباب النسيان إلى جانب ما لاقيت بعد ذلك من الأهوال ، ولا أذكر سوى حادث أو حادثين .

الأول له علاقة بالسيد آرو مساعد القبطان ، وقد كانت فراسة القبطان فيه صادقة ، إذ لم تكن له سلطة على البحارة ، واكتشفنا بعد فترة أنه سكير لا يُرجى .

من صباح الغد صعد إلى ظهر السفينة ليباشر عمله وهو في حالة يرثى لها ، فأمره القبطان بملازمة غرفته .

وكانت هذه حالته كل يوم تقريباً ، فاضطررنا إلى مراقبته لنعرف من أين يأتي بالخمر . فإذا عُوتب في ذلك ، وسُئِل عمن سقاه حلف يميناً كاذبة أنه لم يشرب سوى الماء ، أو يضحك ضحك السكارى الأغبياء .

وتأكد لنا أنه إذا استمر به الحال على هذا المنوال فسوف يهلك نفسه ، ولذلك لم يُدهش أحد لاختفائه عن ظهر السفينة .

وقال القبطان : لعله سقط من السفينة ، وليس فقده خسارة ، لأن هذا يُعفينا من عقوبته المستمرة .

وقد خلفه أندرسون رئيس البحارة ، ويمكن القول إن الجميع قد بذلوا جهدهم لمساعدة القبطان في مهمته ، وكانت صحة البحارة على أحسن ما يرام . ولم يتدخل الطبيب إلا في حالات نادرة من الجروح البسيطة .

كما واجهنا عاصفتين بنجاح كبير ، وقد أتاحتا لنا أن نتأكد من مهارة القبطان وتوازن الإسبانيولا ومقاومتها .

كان الجميع مسرورين فرحين ، ولعل أكثرهم طرباً هو جون سيلفر الذي لم يفارقه مرحه أبداً ، وهم يطيعونه وينفذون طلباته ، وحتى القبطان سموليت اضطر إلى الاعتراف بأنه تسرع في الحكم عليه . وقد وثق به تريلوني والدكتور ، وعقدت معه صداقة حقيقية ، وحين لا أكون مشغولاً على السطح أهبط إليه فيستقبلني بالترحاب .

وكان الأمر العجيب رؤيته وهو يحافظ على توازنه رغماً عن اهتزاز السفينة وترجحها ، فيغرس طرف عكازه في شق من الحائط ويصبح جزءاً من السفينة ، أو يسير على السطح وكأنما يطير ولا يلمس الأرض بقدمه ، ولا تسل عن طبخه فقد كان لذيذاً وافراً يعجب ويتلذذ به طاقم السفينة كلها ، من القبطان حتى أصغر بحار .

وما يعجبني فيه هو أن لديه دائماً حكاية يرويها لي ، فأستفيد منها حكمة أو موعظة ، وحديثه مهذب اللفظ رقيق المعنى ، يختلف عن أحاديث الكثير من رجال البحر .



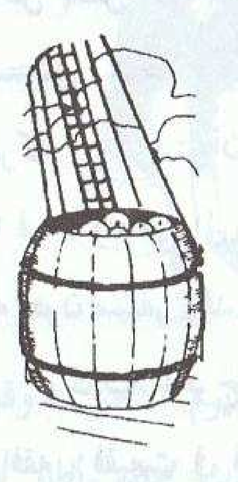
لقد مرت الرحلة بسلام ، ولكن في اليوم الأخير ، وقبل وصولنا قبالة الجزيرة بساعات ، جرى حادث خطير أطار من ذاكرتنا كل تلك الأيام الهانئة التي عشناها أثناء الرحلة .

وكان سبب الحادث برميل تفاح ، إذ أن السيد تريلوني أراد أن يعبر عن إعجابه بالطاقم ورضاه عنه ، فوضع على السطح برميلاً مملوءاً بالتفاح ليتناول البحارة منه ما شاؤوا ، وخطر لي في آخر يوم من الرحلة أو آخر ليلة وبعد انتهاء عملي أن آكل بضع تفاحات .

وكان الجو صحواً والنسيم عليلاً والسفينة تنزلق على سطح من الماء شديد الاخضرار ، فأصغيت قليلاً إلى غناء أحد البحارة ، ثم توجهت إلى برميل التفاح ، فوجدته فارغاً تقريباً ، فتدليت داخله لآكل بعض التفاحات ، وأكلت تفاحة أو تفاحتين ، وسرني أن أستنشق رائحته ، والسفينة تهدهدني كأني في سرير ، ولكن سمعت حركة ، وعرفت أن أحد البحارة جلس مستنداً إلى البرميل الذي أنا فيه ، وتناهى إلى سمعي صوت اصطدام العكاز بالأرض ، فعرفت أنه جون سيلفر وقد غادر مطبخه .

وكدت أخرج لأفاجئه حينما سمعته يحادث البحار الذي يرافقه ، فقبعت في قعر البرميل لدى سماعي أولى كلماته وأنا أرتعد من الخوف لئلا يراني أحدهما حتى سمعت حديثهما كله .

الفصل السادس
فائدة برميل التفاح



قال سيلفر لصاحبه : نعم ، لقد كان فلنت قبطان السفينة التي عملت تحت إمرته فيها سنين طويلة ، وكنت رئيس البحارة على متن السفينة " فالروس " التي رأيتها تُمْلأ بالذهب والدم ، لقد كان فلنت رجلاً لا يتسامح ويحب النظام ، وقد أعدَّ بحارةً لا مثيل لهم ، وها أنت ذا قد رأيتهم بنفسك ، لأن الكثير من رجال فلنت هنا على ظهر هذه السفينة .

فقال محدثه : هذا ما رواه لي أندرسون .

وعرفت من صوته أنه أصغر البحارة ، وهو أحد الذين تعاقد معهم تريلوني في البداية .

وتابع البحار قائلاً : ولكن كيف أنفقوا هذه الثروة في هذا الزمن القليل ؟

فأجابه سيلفر بلهجة حاسمة : لأنه لا يكفي أن تربح المال بل يجب أن تحافظ عليه أيضاً ، لنأخذ على سبيل المثال (بو) الهرم الذي فقد بصره في القضية التي فقدت فيها ساقي ، لقد أنفق ألفاً ومئتي جنيهاً في سنة واحدة ، كأنه أحد الأمراء ، وهذا جنون لأنه أصبح متسولاً بعدئذٍ ، وهناك آخرون أبحروا مع (إنكلاند) و (فلنت) كما أبحرت . مثل بيلي بونز مساعد القبطان في سفينة (فالروس) ، فقد حصلوا على ثروة طائلة .

وسأله البحار باهتمام : وماذا جرى لبيلي بونز ؟

– لم يعرف أن الحفاظ على الصحة مثل الحفاظ على المال ، فكان كثير الشراب حتى هلك ، أنت فتى لكن يظهر لي أنك شديد الذكاء .

وكانت هذه العبارة هي التي قالها لي حين التقيت بسيلفر أول مرة ، فكدت أصرخ فيه لأعبر عن اشمئزازي من هذا الرجل المتصنع .

ومنعني من ذلك أن حياة جميع الشرفاء على ظهر السفينة متعلقة بي ، فضبطت نفسي ، وتابع سيلفر حديثه : إن الذين يحصلون على الثروة بهذه الطريقة يجازفون بحياتهم ، ويرون المشنقة نصب أعينهم ، ولكن العقلاء منهم إذا حصلوا على ثروة طائلة اشتروا قطعة أرض وعاشوا عليها بقية حياتهم سادة محترمين ، وهذا ما أنا عازم عليه بعد انتهائنا من هذه الرحلة .

فقال البحار : إنك اقتصدت بعض الأموال ، ولكن إذا رجعت إلى بريستول فسوف تُصادر أموالك كلها بعد هذه الحملة .

– أن أموالي ليست في بريستول ، فقد باعت زوجتي المطعم يوم ركبت هذه السفينة ، لكي تلتقي بي في الموعد المحدد ، لأنها تعلم أن من يخونني أو يخلف موعده معي جزاؤه الموت ، والآن .. هل يسرك أن تبحر على سفينة يقودها جون سيلفر ؟

– لقد أقنعتني الآن .. كنت متردداً ، ولكنك تستطيع الاعتماد علي .

– حسناً .. هات يدك أصافحك .

واقتربتْ خطواتٌ ، فقال سيلفر للبحار : إن ديك معنا ، إنه رجل عاقل .

فقال ديك : متى تنتهي هذه القضية ، لقد سئمت من سموليت هذا ، إنه يمنع عنا الشراب على ظهر الإسبانيولا .

فقال سيلفر متابعاً حديثه : هؤلاء المدمنون كلهم سواء ، إن القاضي والدكتور يملكان خريطة الكنز ، فيجب أن نعاونهما للحصول عليه ، ولا نفعل شيئاً حتى نأخذ الكنز ، وفي منتصف طريق العودة يكون لنا معهما شأن آخر ، أما هؤلاء المدمنون فيبدو

أن الشراب أهم لديهم من سبائك الذهب ، فكم من شاب تعجل الأمور فكان مصيره بطون أسماك القرش .

فزمجر ديك قائلاً : لا تكف عن إلقاء المواعظ ، لقد كان القبطان فلنت أكثر منك مرحاً .

فقال سيلفر : نعم ، ولكن الشراب أودى به ، وأنا أقضي شيخوختي ثرياً ، والآن .. ماذا نفعل بسموليت وجماعته ؟ إني أفضل قتلهم ، فلا أريد أن يزعجني أحد ويفسد علي احتفالي بميراث بيلي بونز ، وأما توقيت التنفيذ فأقترح أن يكون لحظة مغادرتنا الجزيرة ، وسأتولى دق عنق تريلوني بيدي حتى أُعلّمه ألا يكشف أسراره لمن يرغب في الاطلاع عليها .

فقال ديك : نطقتَ بالصواب .

ثم قال سيلفر مخاطباً البحار : هات لي تفاحة من البرميل .

وكاد قلبي يتوقف من الخوف ، ولكن ديك أوقفه قائلاً : ماذا نفعل بهذا التفاح القذر ؟ لنتناول شيئاً من الشراب .

فقال سيلفر : نعم ، إليك مفتاح المطبخ ، وستجد حنفية في أحد البراميل ، فاملأ كأساً وهاته لنا .

لقد عرفت الآن كيف كان مساعد القبطان آرو يتزود بالشراب ، إن سيلفر هو الذي تسبب في هلاكه . وفهمت من الحديث الذي دار بينهما بعدئذٍ ، أنه ما يزال عدد من البحارة لم ينضموا إلى سيلفر وجماعته .

في تلك اللحظة هتف الراصد من أعلى الصاري : اليابسة !

فنهضت الضجة فوق سطح السفينة ، وانتهزت هذه الفرصة لكي أتسلل من البرميل دون أن يراني أحد ، ودرت حول الحواجز حتى اختلطت ببقية البحارة ، فلم يلحظ أحد غيابي .

كان الجميع واقفين ينظرون إلى الأفق ، ويتأملون ذلك الخط الأسود الذي يفصل السماء عن الأرض تحت ضوء القمر .

كان في الجزيرة ثلاث هضبات ذات قمم مدببة ، وإحداها أكثر ارتفاعاً من الأخريين ، وفكرت أنها : اللورغينت .

كنا نقترب إلى الجزيرة من ناحية الشرق ، وكنت مستعداً بالأمس لمقارنة الخريطة بما أراه أمامي ، وأتخيل معالم الجزيرة ، لكن الخوف والجزع قد أنسياني صورة الخريطة ، وكأنما أعيش حلماً مرعباً .

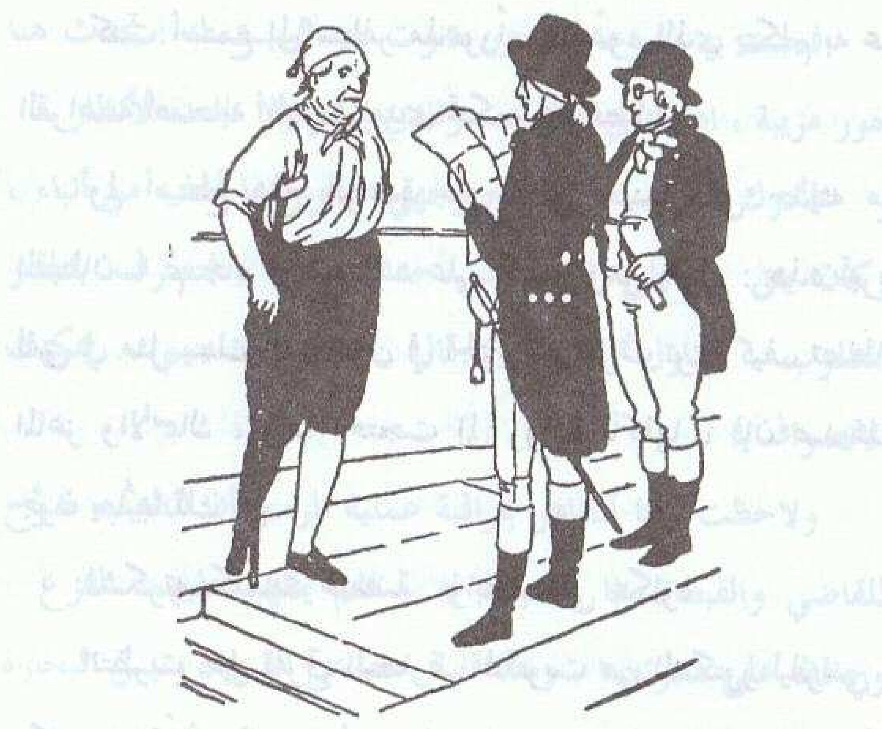
وسأل القبطان سموليت البحارة : هل فيكم من يعرف هذه الجزيرة ؟

فأجابه سيلفر : نعم يا سيدي ، لقد نزلت فيها حينما كنت طباخاً على سفينة تجارية ، وتوقفت فيها ، ومكان الرسو إلى الجنوب ، وراء هذه الجزيرة المسماة (الهيكل العظمي) .

فقال القبطان سموليت وهو يجذب ورقة من جيبه : إنه الاسم المدوّن على هذه الخريطة .

والتمعت عينا سيلفر لسماعه كلمة (الخريطة) ، ولكن ورقة القبطان نسخة عن خريطة فلنت ، وقد دونت عليها أسماء الأماكن ، وينقصها موقع الكنز وإشارات الضرب المحدودة الاتجاهات .

وقد خاب أمل سيلفر حينما أعطاه القبطان الخريطة الناقصة ، ولكن الخبيث قادر على إخفاء انفعالاته ، ولم يظهر شيئاً منها ، وكنت أراقبه بدقة شديدة ، فقال : نعم ، إن المكان المطلوب يا سيدي هنا ، حيث كتب " إرساء القبطان كييل " ، أعرف المكان ، ففيه تيار جنوبي يصعد إلى الشمال محاذياً الساحل الغربي .



فقال الدكتور ليفرسي : أراك تعرف الجزيرة يا سيلفر !

– مثل راحة كفي يا سيدي ، وذلك لأن أحد بحارة تلك السفينة التجارية قد ذكر لي مواقعها بأسمائها ، فهذه الهضبة تسمى " اللورغينت " ، وتلك في الشمال تدعى " الصاري الكبير " ، والظاهر أن تلك الجزيرة كانت ملتقى القراصنة قديماً ، هكذا قيل لي ، وقد بنوا شرق المرسى حصناً صغيراً .

كنت أستمع إلى سيلفر مذعوراً ، فالهدوء الذي يتكلم به عن القراصنة أصحابه أظهر لي مدى تحكمه في أعصابه .

ولم أستطع دفع الرعدة عن نفسي حينما أنهى حديثه مع القبطان ، ثم جاء فوضع يده على كتفي وهو يقول : هذه تجربة لفتى في مثل سنك أن يتجول في الجزيرة ، سوف ترى كيف تصطاد الماعز والأسماك ، وإذا احتجت إلى زوادة تأكلها ، فإن صديقك جون يعدُّها لك .

فشكرته بكلمات غامضة . وابتعد على عكازه .

انتظرت حتى تفرق البحارة ، فاقتربت من الدكتور ليفرسي ، وكنت واثقاً أنه لم ينتبه أحد إلى جلوسي في البرميل ، وخفت أن أسارع إلى إنذار أصحابي ، فيسود فيهم الذعر قبل أن يستعدوا للمواجهة ، وفكرت بطريقة تجعلني أنفرد بالطبيب بعيداً عن القاضي والقبطان .

وكانت مصادفة سعيدة حينما ناداني قائلاً : جيم .. هات لي الغليون الذي تركته على طاولة المكتب .

فجئت به مسرعاً ، وحين دنوت منه همست له : تحدث هنا أمور مريبة ، اهبط إلى المكتب ، وناديني إليك ولا تلفت الأنظار .

فأدرك الطبيب من ملامح وجهي خطورة ما أخفيه من أنباء ، وكان يثق بي على الرغم من حداثة سني ، فتصرف بالحذر المطلوب ، فتناول الغليون ثم قال : شكراً يا جيم .. يمكنك الانصراف .

ولاحظت وأنا أتظاهر بمراقبة عملية الرسو أن الطبيب صرَّح للقاضي والقبطان بما أفضيت له ، فلم يظهر عليهما الفزع ، وحافظا على هدوئهما ، وبعد قليل استدعى القبطان رئيس البحارة أندرسون وأمره قائلاً : اجمع البحارة على سطح السفينة ، لدي إعلان لهم .

وبعد دقيقتين كنا ملتفين جميعاً حول القبطان ، ولاحظت أن ديك سأل سيلفر عما يفعل ، فأجابه سيلفر بالنفي ، وقد ترجمت هذه الحكة كما فهمتها وفهمها القراصنة كالتالي :

– هل نتمرد الآن ؟

– لا ، انتظروا .

وقال القبطان سموليت مخاطباً البحارة :

– يا أصحاب .. لقد وصلنا إلى هدفنا ، وإن السيد تريلوني يريد أن يوجه إليكم شكره من أصغر بحار إلى رئيس البحارة ، لقد أديتم واجبكم خير أداء ، وسوف يكافأ كل منكم بنصف جنيه ، وأرى أن نهتف بحياة السيد تريلوني .

وتدخل سيلفر بصوته المرح قائلاً : لا يكفي هتاف واحد ، بل ثلاثة هتافات ، إنه يوم سعيد لنا جميعاً .

وكان لهذه الهتافات أن تمحو كل شك في خيانتهم ، لولا أني سمعت ما سمعت . واستأنف سيلفر صائحاً : عاش القبطان .. عاش .. عاش .. عاش !

ونزلت بعدئذٍ إلى المطبخ مع سيلفر أساعده في إعداد الطعام ترويحاً عن نفسي ، ولكي أبقى معه أطول مدة ممكنة ، فجاء إليَّ البحار هنتر وهو ينادي : جيم .. القاضي يطلبك .

فمضيت إليه دون أن أبين لهفتي .

كان الدكتور والقاضي والقبطان ينتظرون في المقصورة على أحر من الجمر ، وطلب مني الدكتور الجلوس وهو يقول :

– ماذا لديك يا هوكنس ؟ ماذا حدث ؟

ورويت له بإيجاز مجمل ما سمعته ، ولم أغفل منه أي شيء .

بعد أن أنهيت حديثي تبادل الرجال النظرات ، فامتقع لون القبطان والقاضي ، أما الدكتور فقد احمر وجه غضباً .

– هؤلاء الأنذال الخونة ، لقد خدعونا .

وقال القاضي بصوت مرتجف : نعم ، لقد خدعونا ، والذنب ذنبي ، لقد عرضت على هذا اللعين المنصب الذي طلبه ، فوضع السكين في عنقي ، لقد كنت مغفلاً لا أكثر ولا أقل ، وإني لأقدم إليكم اعتذاري ، اصفح عني يا قبطان ، لقد كانت نظرتك صائبة .

فقال القبطان بتواضع : لا .. لم تكن صائبة ، لأني راقبت هؤلاء الرجال ولم أتفطن إلى ما يدبرونه ، ولم أشهد في حياتي تمرداً يدبر بمثل هذه المهارة ، وسيلفر هذا أخطر المجرمين ، وقد تبعه أصحابه .

وقال الطبيب : إنه رجل داهية ، شديد الذكاء ، ويستعمل ذكاءه في فعل الشر .

وقال القبطان : سنرى ما يفعله الداهية حين يعلق على حبل المشنقة ، والآن ليس أمامنا سوى طريق واحدة نسلكها : " أن نكون أكثر دهاء منه " ، أليس كذلك يا سيد تريلوني ؟

– آه .. لا أريد أن أدلي برأي بعد أن خُدعت هذا الخداع ، تكلم أيها القبطان ! ونحن نوافقك سلفاً على ما تقترحه .

فقال القبطان سموليت : يجب أن نحارب سيلفر في أرضه ..

فوافقه الطبيب قائلاً : لنتفحص الوضع .

قال القبطان : يتلخص الوضع في ثلاث نقاط ، أولاً : يجب علينا النـــزول في الجزيرة ، ولا نستطيع العودة إلى بريستول وإلا حدث التمرد فوراً ، وثانياً : ما دام الكنز مخبوءاً فلن يتحركوا ، ثالثاً : ما يزال بينهم رجال مخلصون لنا ويجب معرفة عددهم والتأكد منهم ، فهل خَدَمُك مخلصون يا سيدي ؟

فقال القاضي : نعم .. أثق بهم ثقتي بنفسي ..

فقال القبطان : حسناً .. هؤلاء ثلاثة ونحن أربعة ، لأن هوكنس رجل الآن وليس أحمق ولا جباناً .

وتورد خداي خجلاً لهذا الإطراء الصادر عن رجل هام مثل القبطان .

وربَّت الدكتور على رأسي بحنان وقال : نعم .. إنه لفتى شجاع ، نحن الآن سبعة ، فهل نستطيع الوثوق بأحد سوانا ؟

فقال القبطان : بحسب رواية جيم ، فإن بينهم بعض الرجال المخلصين ، ويجب أن نبحث عنهم من بين أولئك الذين تعاقد معهم القاضي قبل أن يتعرف على سيلفر .

فقال القاضي : هذا ليس أكيداً لأن ديك من بين هؤلاء ، فلنبق على عددنا ، نحن سبعة ضد تسعة عشر .

فقال الطبيب : وبفضل القبطان وحذره ، فإن لدينا البارود والسلاح ، وأرى أن نتحصن في مؤخرة السفينة ، وأن نستبق التمرد .

فقال القبطان سموليت بعد تفكير : لا ، إن عددنا قليل ولا قدرة لنا على الهجوم ، فلنفتح أعيننا وننتظر اللحظة المناسبة ، وسوف يراقبهم جيم ، لأنه فتى صغير ولا يهابونه .

فصافحني الطبيب قائلاً : إننا واثقون بك ، فكن حذراً .

قال القاضي وكأنه يعتذر : على الرغم مما ارتكبت من أخطاء ، فقد قمت بعملين جيدين ، الأول : أني اتفقت مع صديقي بلاندلي على أن يرسل سفينة تبحث عنا إذا لم نرجع في آخر آب ، وهذا أمر أكيد .

قال الطبيب : ولكنك كتمت هذا السر أشد الكتمان .

فقال القبطان : الأفضل أن يعرفه الجميع ليعلموا أن جريمتهم لن تمر دون عقاب ، وقد يؤثر هذا في خطة المتمردين .

وسأل الطبيب القاضي : وما العمل الثاني ؟

– ولعي الشديد بالتفاح الذي دفعني إلى وضع برميل منه تحت تصرف البحارة .

الفصل السابع
اليابسة

من الغد الباكر بدأت الاستعدادات للنزول إلى اليابسة ، وقد ألقينا المرساة على مسافة نصف ميل تقريباً من أرض الجزيرة . وقد وقف سيلفر مع البحار المكلف بتوجيه السفينة ، وساعده على تجنب الصخور والمياه الضحلة . ونظرت أتأمل الجزيرة وأنا أتناول بعض الطعام ، فوجدتها كئيبة المنظر ، فهل كانت كذلك حقاً أم أن التعب وترقب المخاطر القادمة والشمس المحرقة قد جعلتها كئيبة في نظري ؟ لا أدري ، ولكن أرضها جرداء إلا من بعض الشجيرات والصخور السوداء ورمالها الصفراء .

وأما الحصن الصغير الذي بناه القراصنة الذين يترأسهم فلنت ، وهو مذكور على الخريطة ، فلم أره من السفينة ، وكذلك

المرتفع الذي بُني فوقه ، لأن منحدراً كثيف الأشجار يحجبه عن العيون ، ويظهر أمامنا مدرج دائري طبيعي ، وجدولان من المياه العذبة يسيلان ببطء في بطن الوادي ، مما يضفي على هذا الجزء من الساحل لوناً أخضر كثيف الأعشاب .

قال الدكتور وهو متكئ بجانبي على الحاجز : لا أدري إن كان في الجزيرة كنز ، ولكن الأمر الأكيد أن الحمى هنا مختبئة في هذه المياه الراكدة تقريباً ، وفي هذا الاخضرار الغامق ، إنه لمشهد كئيب ..

فقلت له : هذا رأيي أيضاً يا سيدي ، فهذه الأرض الكئيبة لا توحي إلا بالأفكار الفاسدة ، وقد أكون مخطئاً ، ولكني أظن أن طاقم البحارة متوفزو الأعصاب .

– نحن متفقون على هذا الرأي ، وحتى القبطان يجد أوامره تستقبل بفتور ، وأن التمرد سينشب بعد قليل ، ولسنا وحدنا الذين نحس بالخطر .

فقلت له : لقد أحس به سيلفر أيضاً ، فهو يسعى إلى إخفاء سخط الآخرين بالمرح والغناء ، ماذا سنفعل يا سيدي ؟

فقال : لقد أخطرنا هنتر وجويس وردروث بالأمر ، ولكنْ صمتاً ! هذه صفارة لاجتماع البحارة ! تعال يا جيم وخذ هذا المسدس وخبئه داخل قميصك .

خاطب القبطان البحارة متظاهراً بأنه لم يدرك توفز أعصابهم ونظراتهم العدوانية التي يرمونه بها : أيها الأصدقاء ، الآن وقد وصلنا فإني أعطيكم إجازة نصف يوم ، ليستريح الجميع ، ومن أراد النزول إلى اليابسة فهو حر .

فزال عن البحارة توفزهم في الحال ، وعلى حين نزل القبطان والدكتور وروث وهنري وجويس إلى المقصورة دون أن يظهر قلقهم على وجوههم ، فإن البحارة تجمعوا حلقة حول سيلفر يطلبون الإذن منه بالنزول إلى البر ، وكأن الطباخ هو قبطانهم الفعلي .

ولم يكن سيلفر الحذر ليترك الإسبانيولا دون حرس من جماعته ، فأمر ستة منهم بالبقاء ، ورافقه الخمسة عشر الآخرون ، فأنزلوا القاربين الكبيرين إلى الماء ومضوا .

وفي دقيقة واحدة اخترت جماعتي ، فالطبيب وأصحابنا متساوون في العدد مع جماعة سيلفر على ظهر السفينة ، وليسوا بحاجة إليَّ ، ودفعتني غريزتي إلى الانضمام إلى الجماعة الذاهبة إلى البر ، فقفزت إلى أحد المركبين وهو ينفصل عن السفينة .

قال سيلفر من المركب الآخر ، ولم يرني جيداً : هل هذا جيم هناك ؟

فقال أحد البحارة : نعم .. هذا جيم .

فقال سيلفر وهو يحاول إخفاء لهجة التهديد في صوته : يريد أن يتمشى قليلاً ، معه حق هذا الفتى !

نظرت إلى وجوه الرجال المحيطين بي ، وقد عزمت أن أتفلت منهم بأسرع ما يمكن ، ووجدت الأمر سهلاً . وتسابق القاربان ، فوصل قاربنا أولاً ، فقفزت إلى البر وجريت بأقصى سرعة ، ولم أتوقف لنداءات سيلفر الودية .

قطعت المستنقع المملوء بالأغصان وجذوع الأشجار ، ولم أتنفس بحرية إلا حين وجدت أن أحداً لا يطاردني ، فجعلت أتفحص ما حولي وأنا أشعر بفرحة الاكتشاف .

وأزعجت خطواتي الطيور والزواحف ، فانطلقت وهي تحرك أوراق الأشجار ، وكانت هضبة (اللورغينت) محاطة بهالة من الحرارة الشديدة والبخار يتصاعد في المستنقع .

وتبدو (الإسبانيولا) كأنها سمكة كبيرة راقدة في الماء .

فجأة سمعت صوت رجلين في الوادي القريب ، فأطللت برأسي وأنا مختبئ داخل شجيرة ، فإذا توم وهو أحد البحارة الذين اختارهم تريلوني وجهاً لوجه مع سيلفر ، وكان صوت توم أجش غضباً ، وهو يقول : لن يكون هذا أبداً يا سيلفر ، لن يكون .. لن أوافق مجموعة أشرار على التمرد ، ولن أخون القبطان ، وأفضل أن تقطع يدي على أن أتخلى عن واجبي ، ولو كنتَ رجلاً شريفاً ..

وتوقف عن الكلام إذ ارتفع من ناحية القاربين الراسيين نداء استغاثة ثم صرخة مخيفة ، وارتجفت من رأسي إلى قدمي .



كانت صرخة رجل يجود بروحه ، فقال توم وهو ينظر إلى سيلفر برعب : ما هذا ؟ لماذا يصرخ (آلان) ؟

فقال سيلفر بهدوء ، وهو يرقب حركات محدثه : لأنه لم يشأ أن يفهم بالحسنى .

فاصفر وجه توم وهو يقول : آه فهمت .. أراد (آلان) أن يظل شريفاً مثلي ، فليرحمه الله ، قد تستطيع قتلي فأموت ميتة شريفة ، وأما أنت فلست بحاراً حقيقياً يا سيلفر .

وأدار توم ظهره وتوجه نحو الساحل ، وبقفزة واحدة هجم عليه سيلفر وكأنه هر وحشي ، وتصارع الرجلان وتدحرجا على

الأرض ، ولكن نهض سيلفر وحده والدم يقطر من سكينه الكبيرة ، وقد طعن توم بين كتفيه وقتله فوراً .

ودارت الأرض من حولي ، وأظني فقدت الوعي عدة دقائق ، وحين فتحت عيني رأيت سيلفر يمسح سكينه بقبضة عشب ، وسيطر الرعب عليَّ فهربت ، ولم أفكر في الاتجاه الذي أسلكه ، المهم أن أبتعد عن هؤلاء القتلة ، والخوف يتضاعف مع كل خطوة أخطوها .

وكيف أعود إلى السفينة ؟ إذا رجعت إلى القاربين حينما يطلق القبطان المدفع ألا يقتلني المتمردون أيضاً ؟ كان نزولي إلى البر فكرة سيئة ، ولو بقيت في السفينة لساعدت أصحابي للسيطرة عليها ، فنحن نملك ما يكفي من السلاح .

وتوقفت لألتقط أنفاسي ، وقد وصلت إلى سفح الهضبة المسماة في خريطة فلنت " الصاري الكبير " ، وكانت أشجار السنديان بأغصانها الملتوية تضفي على هذا الجزء من الجزيرة مظهراً معتماً ووحشياً أكثر مما سواه .

وفجأة تساقطت الحجارة من حولي ، ولمحت شبح إنسان وراء الصخرة ، هل هذا رجل أم قرد أم إنسان ؟ لا أدري ، وتملكني الخوف بحيث تجاوز خوفي من القراصنة ، فنزلت باتجاه القاربين وجريت بأقصى سرعة والرجل يتبعني ، فلم يكن حيواناً ، وتناقص خوفي منه ، ولكن تزايد رعبي من سيلفر ، فآكلو لحوم البشر ليسوا أكثر شراً من سيلفر قاتل توم .

وتلمست المسدس الذي أعطاه لي الدكتور قبل ساعات ، وتوقفت عن الجري ووقفت ثابت القدمين أنتظر رجل الجزيرة هذا ، وأمسكت المسدس .

فتردد وتراجع ، ثم تقدم قليلاً وارتمى على الأرض يرجوني وقد شبك يديه ، وتأملته قليلاً ، لم يكن رجلاً متوحشاً ، بل رجلاً أبيض البشرة ، جميل الوجه ، في حوالي الأربعين من العمر . يغطي جسمه جلد ماعز أسود مربوط بحزام جلدي حول خصره ، وعيناه السوداوان تلمعان في وجه لوحته الشمس .

وسألته بلطف : من أنت ؟

فقال بصوت أجش كأنه صرير قفل صدئ : بين غين .

– وماذا تفعل في هذه الجزيرة ؟ هل غرقت سفينتك ؟

– لقد رماني أصحابي هنا منذ ثلاث سنوات .

وكنت أعلم أن القراصنة يرمون من يخالف قواعدهم على جزيرة مهجورة ، ويعطونه بندقية وبعض البارود .

واقترب (بين غين) وجعل يتلمس حذائي ويدي وثيابي بإعجاب وقال : ما أجمل أن يتكلم المرء إلى إنسان ، منذ ثلاث سنوات ، تصور ! ما اسمك يا رفيق ؟

– جيم .

– اعلم يا جيم أن الله عاقبني على سوء فعلي ، وقد تبت الآن ، وآمل أن تعتبر بما ترى وتكون إنساناً صالحاً .

– ولكن كيف عشت منذ ثلاث سنوات ؟

– عشت على الماعز والأعناب والمحارات ، إني مسرور برؤيتك يا جيم ، ولا تقل لأحد إني سأجعلك غنياً جداً ذات يوم .

فقلت له وقد تأكدت أنه قد فقد عقله ، ولم أشأ أن أعارضه :

– شكراً لك ، ولكني لكي أستفيد من هذا الغنى لا بد أن أرجع إلى السفينة التي جاءت بي .

فأمسك بيدي وقال : سفينة ؟ ليست سفينة فلنت أليس كذلك ؟

– لا ، ليست سفينة فلنت ، لأنه مات ، ولكن على سفينتنا بعض رجال فلنت لسوء الحظ .

– وهل فيهم رجل بساق واحدة ؟

– سيلفر ؟ نعم .

وحكيت له بأوضح ما يكون قصة رحلتنا ، فأصغى إليها باهتمام ، ثم ربت على رأسي بحنان وقال : بين غين سينقذك من هذا المأزق ، ولكن هل صاحبك القاضي سيكون شهماً تجاهي ، وهل سيأخذني معه في سفينته ؟

فقلت له : حتماً ، إنه رجل شهم طيب القلب ، وسيكون وجودك ضرورياً على السفينة حين نعود إلى بريستول ، فأنت بحار ماهر .

حكى لي قصته فقال : كنت من بحارة فلنت على سفينة (فالروس) ونزل مع ستة بحارة إلى هذه الجزيرة ودفنوا الكنز ، ولبثوا أسبوعاً ويوماً واحداً ، ثم عاد وحده وهو شاحب الوجه ،

فقد قتل الرجال الستة ، وسأله مساعده بيلي بونز ولونغ جون نائب المساعد عن مكان الكنز ، فقال لهما : (ابحثا عنه) هازئاً بهما .. بعد ثلاث سنوات كنت على ظهر سفينة أخرى ، وذكرت للقبطان أن الكنز مدفون هنا ، فأصرَّ البحارة على المجيء ، وعارضهم القبطان ، ولكنه اضطر إلى مسايرتهم ، ونزلنا فلم نجد شيئاً ، فعاقبني القبطان بأن خلفني في الجزيرة ومعي معول وفأس وبندقية ، ومرت ثلاث سنوات .. إن كان صاحبك القاضي رجلاً شريفاً فليأت إليَّ وسوف نتفق حتماً .

فرك إصبعيه إشارة إلى النقود .

– ولكن كيف أمضي إلى السفينة لأنقل رسالتك إلى القاضي .

– خذ قاربي ، إنه متين ، لقد خبأته تحت الصخرة البيضاء ، هناك .. ولكن اسمع !

كانت طلقات المدفع تتردد أصداؤها ، وليس القبطان هو الذي يطلقها لأن الشمس لم تغرب بعد ، إن أصحابي يقاتلون ، وانطلقت أجري وبين غين يجري معي .

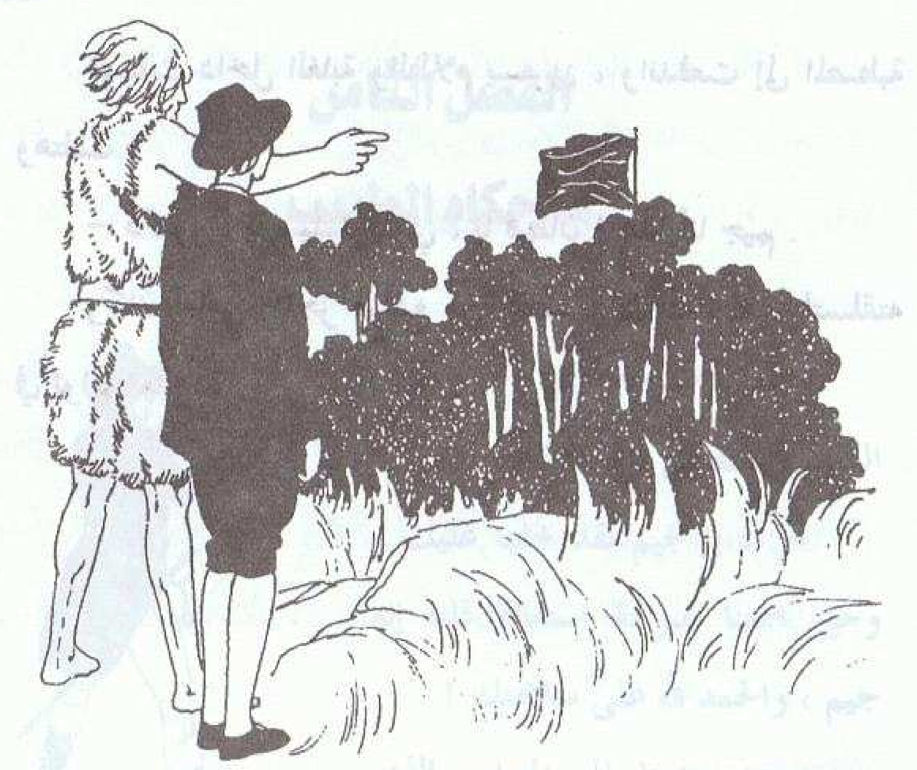
واختلطت طلقات البنادق بطلقات المدفع ، وتوقفتُ فجأة إذ رأيت العلم البريطاني يخفق على مسافة ربع ميل أمامنا فوق غابة السنديان الخضراء .

فتوقف بين غين وأمسك بيدي : إنهم أصحابك ، إن العلم يرفرف على حصن فلنت ، فوق المصطبة العتيقة ، ولن أذهب معك لأني أرتاب في أفكار الناس .

ولكن إذا أراد أصحابك الاتفاق معي ، فليأتوا إلى المكان الذي وجدتني فيه ، وليكن معهم شيء أبيض ، قماش أو سواه إشارة إلى السلام . الوداع يا جيم ، ولا تذكر لسيلفر اسم بين ولو عذبك .

وصفرت رصاصة قريبة منا ، فانطلقت أنا وبين غين كلٌّ منا في اتجاه معاكس للآخر .

واستمر المدفع يقصف قرابة الساعة ، وتأكدت أن رجل الجزيرة على حق بأن أصحابي اختبؤوا وراء الحصن الصغير .



فقد انطلقتُ من مخبأ إلى مخبأ لكي أجتنب قصف المدفع غير المحكم ، ورأيت فوق السفينة علماً أسود يرفرف ، إنه علم القراصنة ، ولبثت مختبئاً حتى اختفت الشمس في البحر ، فتسللت بين الأشجار نحو الحصن من ناحية الساحل ، وقرب المصطبة كان رجال يقطعون شيئاً ما بضربات الفؤوس .

ومن بعيد عند مصب الجدولين أشعلت نار كبيرة ، وقد ارتفعت أصوات رجال يضحكون .

فهبطت داخل الغابة والظلام يسترني ، واندفعت إلى المصطبة وهتفت :

– دكتور ، يا سيد تريلوني ، يا قبطان ! هذا أنا جيم .

وكان أمامي حاجز مرتفع من القصب لا منفذ له ، فتسلقته في ثوان معدودة .

الفصل الثامن

ما حكاه الطبيب

وسمعت صرخة ابتهاج ، وجرى الطبيب يستقبلني فاتحاً ذراعيه :

– آه يا جيم لقد خفنا عليك ، وحين سمعنا صرخة استغاثة قلنا إنه جيم ، والحمد لله على سلامتك ! .

وحين مضينا إلى المتراس الذي تحصنوا فيه ، وجدت تريلوني والقبطان وهنتر وجويس وأحد البحارة يدعى إبراهام غراي ، وفي ناحيةٍ جسداً مُسجًّى ومغطى بعلم إنكلترا ، إنه رودروث الشيخ .

وعاتبني القاضي لأني نزلت البحر مع البحارة ، ولكن قاطعه الدكتور قائلاً : إني متشوق لمعرفة كيفية هربه من مصير آلان البائس .

فرويت لهم ما حدث معي ، فسألني الدكتور وهو يفكر :

– أي نوع من الرجال بين غين هذا ؟

– لا يبدو لي سليم القوى العقلية تماماً .

– هذا سببه طول العزلة ، وإنك باكتشافك له قدمت لنا خدمة عظيمة ، وإني أهنئك على ذلك .

ثم شدَّ القبطان على يدي مهنئاً أيضاً .

وعلى حين كانوا يفكرون بالأمر تلفت حولي أتفقد المكان ، إذ أن السقف والجدران مصنوعة من جذوع الصنوبر ومرفوعة على قواعد خشبية مغروسة في الرمل بارتفاع قدم تقريباً .

وأما الثقوب والفتحات فمغطاة بالعشب والصلصال الذي جُلب من الجدول الصغير الذي يترقرق على مدخل الحصن تحت قنطرة من الخشب .

كان هنتر وجويس يراقبان تحركات العدو وهما يقطعان الشجيرات والأعشاب ليغطيا بها الرمل ويمنعانه من الدخول إلى شقوق الكوخ ، ولكن الريح القوية تضربه فينفذ منها ويصيب العيون .

وكُلف الدكتور بالطبخ ، فكانت الريح تمنع النار من الاشتعال ، والمدخنة لا تسمح بنفاذ الدخان ، وكنا نسعل دون توقف . أما الموقد فهو سلة حديدية تركها فلنت ، وبجانبها حوض حديدي يمر الجدول فوقه ويشكل خزان ماء .

وحينما كنا نتناول الطعام سألت الدكتور أن يحكي لي كيف تركوا السفينة حتى وصلوا إلى هذا المتراس البدائي ، فقال الدكتور : لا أدري إن كنا أحسنا أو أسأنا بتركنا السفينة ، ولكن حين غادرناها تبين لنا أنه الحل السليم الوحيد المتبقي أمامنا .

وقد اجتمعنا في المقصورة وعقدنا اجتماعاً بعد أن غادر البحارة السفينة ، وقررنا أن نسيطر عليها ونبتعد عن جزيرة الكنز ، ولكن لفت القبطان انتباهنا إلى أمر هام ، هو أن الريح ساكنة ولا يمكننا الابتعاد عن الشاطئ وتنفيذ خطتنا ، ولا بد أن يلحق بنا المجرمون ، بالإضافة إلى كونك في البر مع البحارة ، وهل نتخلى عنك حتى لو هبت الريح ؟ ولم نشك في إخلاصك لحظة واحدة ، ولكننا كنا خائفين عليك بين هؤلاء المتوحشين .

وسألني القاضي : ماذا نفعل ؟

فقلت له : سأنزل بالقارب مع هنتر ، وأتسقط أخبار سيلفر وأصحابه ، وراقبوا أنتم هؤلاء الخبثاء على ظهر السفينة .

ركبنا القارب الصغير وتوجهنا إلى الحصن مباشرة ، كان الحر شديداً والجو خانقاً والقطران يذوب في شقوق القارب ، والرائحة النتنة المتصاعدة من المستنقع تثير الغثيان ، وقد خشيت أن أصاب بمرض لأني مسؤول عن صحة الجميع .

وحينما غادرنا السفينة لاحظت أن البحارة يتهامسون فيما بينهم ، ولكن وجود السلاح في المقصورة مع أصحابنا أعاد إليّ الثقة بسلامة من تركنا وراءنا .

وحين وصلنا الشاطئ لَمَحَنا الحارسان اللذان تركهما سيلفر أمام القارب ، فتشاورا ثم قررا أن يتركانا نمر بهما ، وجلسا في القارب دون حراك ، وسرعان ما وصلنا المصطبة ودخلنا الحصن ، فتبين لي أن هذا المكان المحاط بحاجز علوه ست أقدام ، فوق ذروة لا تحيط بها الأشجار ، ويجري تحتها جدول ماء عذب هو الموقع الذي نستطيع الدفاع فيه عن أنفسنا ولو هاجمتنا كتيبة كاملة .

صحيح أن المقصورة في الإسبانيولا بسلاحها وعتادها وذخيرتها ومؤونتها قد تتيح لنا المقاومة زمناً طويلاً ، ولكن ينقصنا الماء المتوافر هنا . وحينما كنت أفكر في أمرنا ارتفعت صرخة عالية ، وطالما سمعت في حياتي من صرخات قبل الموت ، فارتعدت من الخوف وقلت لنفسي : " إنه جيم .. " وجرينا إلى القارب وجذفنا بكل قوتنا إلى السفينة ، فرأيت الجميع مضطربين لسماعهم تلك الصرخة ما عدا القبطان الذي حافظ على اتزانه وهدوئه ، وكانوا يلومون أنفسهم لأنهم تسببوا في قتل رجل ، وأشار القبطان إلى رجل بين جماعة البحارة الذين خلفهم سيلفر وقال : " هذا إبراهام غراي يرتجف من الذعر لمقتل الرجل ، وما علينا سوى أن نستدعيه لينضم إلينا " فقلت له : سنرى هذا فيما بعد ، وأما الآن فلنسارع بالنزول إلى البر لأن دفاعنا هناك سيكون أجدى ، ويجب أن نحمّل القارب ما نستطيع من السلاح والذخيرة والمؤونة .

ورسمنا خطة تنفيذ ذلك في لمحة عين . أما القاضي والقبطان ، فقد أمسك كل منهما مسدسين بيديه وتوجها إلى البحارة الستة ، على حين وقف رودروث في الممر المؤدي إلى المقصورة من الناحية

الأمامية ليمنع الهجوم منها ، وكان يحمل أربع بنادق محشوة بالرصاص ، وصرخ القبطان بهم : انزلوا إلى العنبر الأمامي ولا يصعد أحد منكم إلى السطح حتى أناديه ، وإذا تحرك أحدكم أرديته قتيلاً .

وسارع الرجال الستة إلى النزول ، وحاولوا الالتفاف حولنا من ناحية الممر ، لكنهم رأوا رودروث مسلحاً بالبنادق فتراجعوا ، واستطعنا أنا وجويس وهنتر تحميل القارب دون انزعاج ، وقد

كدست فيه علب البارود والبنادق وأكياس الطعام والخبز والسمن ، ولم أنس حقيبتي الطبية ، وانطلقنا .

وصلنا إلى الحصن فتركنا جويس وهنتر في حراسة المؤن والذخائر وتجهيز الحصن ليكون معداً للسكن ، ورجعت إلى السفينة فوجدت القاضي ينتظرني في الناحية الخلفية وقد كدس حمولة أخرى للقارب ، ولم نفكر برحلة ثالثة لأن بحارة سيلفر الذين تركهم على الشاطئ قد ينتبهون إلينا ويخبرون أصحابهم المتفرقين في الجزيرة بما يجري ، وقد سمعنا نداءاتهم ولكنها لم تصدر من ناحية الحصن لحسن الحظ .

وبدأ الجَزْر بالتراجع حينما أنهينا الرحلة الثانية . وقبل النزول من السفينة انصرفنا إلى الحديث مع إبراهام غراي وتذكيره بواجبه نحونا ، وناداه القبطان يدعوه للانضمام إلينا والإعراض عن عصابة المجرمين .

وسمعنا صوت شجار بين البحارة ، ثم اندفع إبراهام غراي إلينا وهو يقول : هأنذا يا سيدي القبطان .

فصافحه القبطان سموليت ثم ضرب الماء بمجذافه ضربة قوية مبتعداً عن الإسبانيولا . وأثناء ذلك كنت أعالج إبراهام غراي الذي تلقى ضربة سكين في خده من أحد البحارة المتمردين . ولكن القارب لم يتقدم لثقله بسرعة ، على الرغم من جهودنا ، بالإضافة إلى قوة الجزر التي تقاومنا ، وقال القبطان سموليت بصوت قلق : آمل أن نصل إلى الشاطئ لأن البحار هاندس قد نصب المدفع على ظهر الإسبانيولا ، وقد ذكر لي غراي أنه المدفعي على سفينة فلنت – أي أنه ماهر في التصويب – فلنسرع ما أمكننا ذلك .

وسألته : ماذا نفعل ببقية السلاح يا قبطان ؟

فقال : لا نستطيع أن ننقله لأنه ثقيل ، ولا بد من إغراقه .

وصرخ إبراهام غراي : ها هو ذا قارب سيلفر !

وكان سيلفر وبعض أصحابه قد قفزوا إلى القارب وهم يجذفون باتجاهنا ، ولكن لا خطر علينا منهم لأن التيار معاكس لهم ، وأما عدونا الخطير فهو هاندس فوق سطح الإسبانيولا الذي يصوب المدفع نحونا .

وصوَّب القاضي بندقيته نحو هاندس ، وأطلق رصاصته فأصابت رجلاً بجانبه .

وهتف القبطان يشجعنا : هيا يا شباب .. عدة ضربات ونصل إلى الشاطئ .

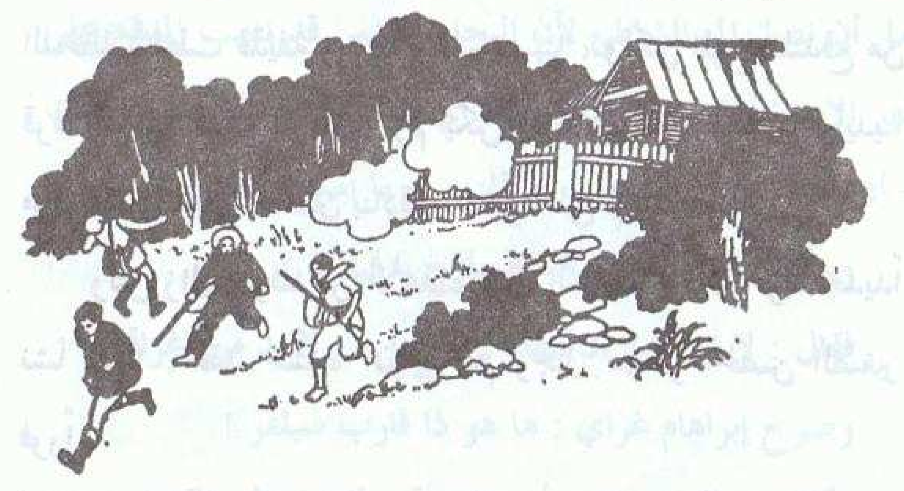
فبذلنا كل ما بوسعنا حتى وصلنا إلى الشاطئ ، وفي تلك اللحظة سقطت قذيفة وراءنا ، فلم تصبنا ، ولكن الموج المندفع من قوة القذيفة قلب قاربنا ، ولم يكن الماء عميقاً ، فمشينا وأيدينا مرفوعة إلى أعلى حاملين بنادقنا المحشوة التي لم يبللها الماء .

ولئن زال خوفنا من الأعداء فوق السفينة ، فإن خوفاً جديداً نشأ لدينا ، فقد خشينا أن يهاجم رجال سيلفر الحصن الصغير فوراً .

وقد لاحظوا أنهم لا يقدرون على مطاردتنا في البحر ، فنزلوا إلى البر مسرعين ، وكنا نجري في الغابة الفاصلة بين الشاطئ والحصن حين هتف القاضي : هاهم قد جاؤوا ! ..

ولم يكن لدينا الوقت لنتسلق الحاجز ، فقد سبقونا إليه ، وانطلقت رصاصات هنتر وجويس من ورائه ، والتفت إليهم القاضي ، وأطلق رصاصة أردت أحدهم قتيلاً .

وهرب الآخرون ناجين بأنفسهم نحو الغابة ، وعند ذلك طلب منا القاضي الإسراع للاختباء وراء المتراس .



حينئذ انطلقت رصاصة من الشجيرات القريبة وسقط رودروث وهو يئن ، فأفرغت بندقيتي باتجاه الشجيرات ولم أصب أحداً ، على حين حمل أصحابي توم رودروث إلى الحصن وهو ينزف ، وتفحصت الجرح فوجدت أن لا أمل في الشفاء ، وأدرك توم ذلك فقال لي : أظنها النهاية يا دكتور ؟

فقال القاضي وهو يبكي كالطفل : سامحني يا صديقي الطيب .

فتمتم رودروث بصوت خافت : إذا أردت توم أن يصفح عنك فارجع سالماً إلى إنكلترا يا سيدي ! الوداع .. الوداع ..

وتحسر حسرة خرجت معها روحه .

وظل القاضي جاثياً بقربه مدة طويلة وهو يبكي ، وصليت عليه صلاة الميت .

أما القبطان ، فقد كان يَجْرد محتويات الحصن ، فقال : إنه مات شهيد الواجب ، فليتغمد الله روحه برحمته ، وقد حملت معي رايتين ، هذه واحدة نلفه بها ، والثانية أرفعها فوق الحصن ، إني الآن واثق من النجاة لأن الحصن سفينة أخرى .

ثم توجه بالحديث إلى القاضي : كم هو الزمن اللازم لوصول السفينة التي سيرسلها بلاندلي ؟

– لن تغادر قبل نهاية آب .

– القضية إذاً قضية شهر ، وكم آسف لأننا فقدنا حمولتنا الثانية ، فنحن بحاجة إلى مؤونة كثيرة .

حينئذ انطلقت قذيفة فوق الحصن ، فقال القبطان :

– دعوهم يستنفدون ذخيرتهم !

وسأله القاضي : ما دام الحصن لا يُرى من السفينة فكيف صوبوا نحوه ؟

فقال القبطان : بسبب رايتنا المرفوعة فوق الأشجار .

فقلت : أليس من الأسلم أن ننزلها ؟

فأجابني القبطان : أبداً يا سيدي ، لا أنزل راية رفعتها أبداً !

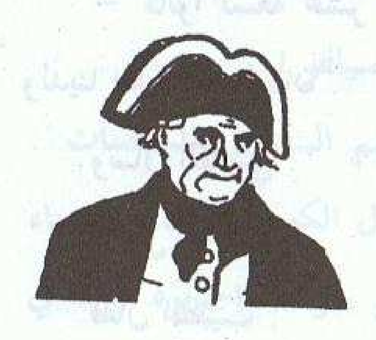
وقد كانت شجاعة القبطان سموليت واعتزازه جواباً حاسماً على سؤالنا ، ولم نعد نطلب منه إنزال الراية .

وجلسنا هادئين والقذائف تتساقط من حولنا وتغوص في الرمال ، وأصابت واحدة سقف الملجأ وفتحت ثغرة فيه ، ولكنها لم تصبنا بأذى .

وحاولنا أن نسترجع الذخائر والمؤن الغارقة في القارب الثاني ، ولكن سيلفر سبقنا إليها .

هذه يا ولدي حكايتنا من بدايتها إلى حين وصولك ، ولم يبق أمام القبطان سوى أن يمحو اسمك من قائمة " المفقودين " ، وكم أسعدني هذا !

الفصل التاسع
المعركة



لم يكن لدينا من الطعام سوى ما يكفينا ستة أيام على تقتير شديد ، ولكن ماء الجدول دائم الجريان ، وموقع الحصن المرتفع بعيد عن المستنقعات الوبيئة .

قبل العشاء دفنا توم في الرمل داخل السياج وعدنا كئيبين . وجلس القاضي والقبطان والطبيب في زاوية يناقشون الحالة بصوت خافت ، وهنتر وإبراهام غراي يحرسان من الجهة الخلفية ، وجويس نائم ، وأما أنا فقد وضعت رأسي بين يدي أفكر وأصغي إلى حديث الرجال وريح الشمال تعصف بين الأشجار .

قال القبطان :

– لا يجبرنا على الاستسلام سوى الجوع ، وأملنا الوحيد هو إبادة أكبر عدد ممكن من القراصنة لييأسوا من مهاجمتنا .

ولاحظ الدكتور :

– كانوا تسعة عشر فأصبحوا خمسة عشر أو ثلاثة عشر ، ولدينا حليفان عظيمان .

وسأل القاضي :

– من هما ؟

فقال الطبيب :

– الحمى والخمر ، ألا تسمع أصوات شجارهم وغنائهم ؟ هذه الخمر ، وأما الحمى فأراهن على أنه لن يمر شهر قبل أن تطرح نصفهم مرضى ، أضف إلى ذلك أنه ليس لديهم أدوية ، ولو كانوا أذكياء لما هاجمونا ، فماذا يبغون ؟ أليس لديهم سفينة يقومون بها بأعمال القراصنة ؟

فقال القبطان وهو ساخط :

– الأشقياء ! لقد فقدت سفينتي بسببهم ، أول سفينة أفقدها في حياتي المهنية .

وكانت هذه آخر كلمة أسمعها ، فقد تمددت بجانب جويس وذهبت في سبات عميق .

من صباح الغد نهضت مسرعاً على صوت نداء ، وكان هنتر ينادي :

– راية بيضاء .. راية بيضاء .. إنه سيلفر ! .

وسرعان ما نهض الجميع وبأيديهم البنادق والمسدسات . وقبعت وراء أحد المتاريس المنتشرة حول الكوخ . كانت السماء صافية والشمس تلامس رؤوس الأشجار ، وأنحاء الجزيرة غارقة في بخار ثقيل أبيض ، والبرد شديد .

قال القبطان :

– لا يغادر أحدكم الحصن ، على الرغم من هذه المنشفة البيضاء التي يحملها سيلفر .. قد تكون خديعة ..

ثم التفت إلى القرصان وهتف به :

– أنت هناك ! ماذا تريد ؟

فأجاب البحار المرافق له :

– القبطان سيلفر يريد التفاوض معك .

فقال القبطان باحتقار :

– لا أعرف قبطاناً باسم سيلفر ، فهل تعني طباخ سفينتي .

فأجاب سيلفر :

– نعم يا سيدي ، إنه أنا ، جئت أعرض عليك شروط الاستسلام ، ولكن على شرط أن أمضي سالماً ، وتعطيني دقيقة لكي أختبئ أثناءها .

فقال القبطان :

– ليست الخيانة من طبعنا يا سيلفر ، تقدم وقل ما تريد .

فرمى سيلفر عكازه من فوق السياج ، وساعده صاحبه على الصعود ، فأمرنا القبطان بأن نبقى في مراكزنا ونكون حذرين .

كان الطبيب مكلفاً بمراقبة الجهة الشمالية ، وغراي بالجهة الغربية ، وأنا بالشرقية ، وأما القاضي وهنتر وجويس فكانوا جاهزين لتلقيم بنادقنا ، ولكني أعترف بأني لم ألزم مركزي ، وتسللت وراء القبطان ، وكذلك فعل الطبيب والقاضي لكي نستمع إلى مفاوضته مع سيلفر .

اقترب سيلفر من القبطان ، وحيَّاه بارتياح واحترام ، وكان يرتدي بذلة زرقاء ذات أزرار نحاسية وقبعة مزينة بأشرطة إشارة إلى رتبته الجديدة .

فأشار القبطان إلى الرمل وقال :

– اجلس هنا .

– ألن ندخل إلى المتراس ؟ البرد شديد هنا .

فقال القبطان :

– كان مطبخك أدفأ لك لو بقيت طباخاً في سفينتي ، ولكن بما أنك أصبحت قبطان قراصنة ، فلك مني ما تستحق من تقدير .. ما لديك لتقوله ؟

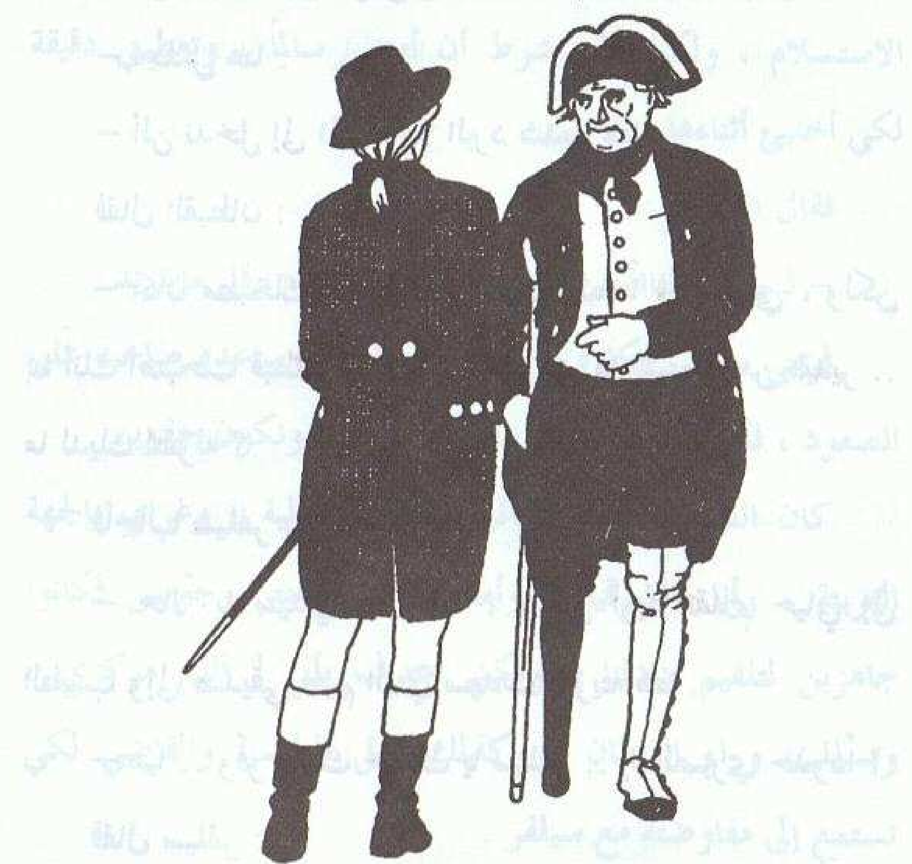
فأجاب سيلفر بطريقته المرحة :

– حالاً يا سيدي .. حالاً ، ولكن أريد تقديم حياتي إلى الطبيب وإلى صديقي جيم الذي سعدت برؤيته هنا .

– هيا .. وفّر عليك حياتك يا سيلفر .. إن لصبري حدوداً !

فقال سيلفر :

– المؤكد أن البارحة كان يوماً سعيداً بالنسبة إليكم ، فقد جذفتم كما يجب ، ولا ريب أن فيكم من يجيد استخدام الهراوة ، فلم نكن حذرين منكم ، وقد بالغنا في الشراب ، ولكني أنذركم بأننا سنكون صاحين لكم الليلة القادمة ، ولن تقتلوا أحداً منا .



فهز القبطان رأسه مبتسماً ، ولم يدر القرصان أن القبطان لا يد له في مصرع هذا الرجل .

وتبادلت النظرات مع الدكتور ، وقد مرت برأسنا فكرة واحدة ، لا بد أن بين غين قد انتهز فرصة من هؤلاء السكارى ، فصرع أحدهم بضربة هراوة . وقلت لنفسي إن أعداءنا قد نقص عددهم إلى أربعة عشر .

ونهره القبطان قائلاً :

– قل لي ماذا تريد ؟

– الكنز يا سيدي .. كنز فلنت .. لأننا ساعدناه على كسبه ولم تفعلوا أنتم شيئاً ، وكل ما نريده منكم خريطة الكنز التي كانت مع بيلي بونز ، نحن نعلم أنها معكم ولا تهمنا حياتكم بعدها .

فقال القبطان وهو يحشو غليونه بهدوء :

– أفضل أن أفجر الجزيرة بمن فيها على أن أعطيك شيئاً سوى حبل متين من القنب تترجح فيه .

فأجابه سيلفر وهو يحاول السيطرة على أعصابه :

– أعطني هذه الخريطة وأترك لك الخيار ، إما أن ننقلكم معنا سالمين إلى أحد الموانئ ، – وهذه كلمة شرف – أو تبقون هنا ومعكم ما تحتاجونه من المؤونة ، وأعدكم بأن أرسل إليكم أول سفينة أصادفها في طريقي ، وآمل أن يكون الجميع في هذا المتراس قد سمع كلامي .

ورفع صوته بالعبارة الأخيرة . فأجابه القبطان بصوت حازم :

– إني الآمر الوحيد هنا ، وأقول لك باسمنا جميعاً كلمة واحدة (كلا !) .

فقال سيلفر وقد احمر وجهه :

– أحذركم ! إذا رفضتم فلن يكون بيننا سوى حديث البنادق .

فقال القبطان ببرودة :

– ليكن .. والآن أنذركم بأنكم إذا استسلمتم وضعت في أرجلكم القيود ، ومضيت بكم إلى إنكلترا حيث تحاكمون محاكمة عادلة ، وإذا لم تستسلموا علقتكم على المشانق ، وليس فيكم رجل قادر على قيادة السفينة ، وأنت تعرف ذلك ، ولستم قادرين على

هزيمتنا ، فالرجل منا يساوي خمسة منكم ، هذا كل ما أقوله لك ، والآن اغرب عن وجهي ..

ونهض سيلفر ببطء وقد ارتجفت شفتاه من القهر ، وصرخ وهو يتسلق السياج بصعوبة :

– تظن نفسك داهية ، ولكن سنريك ما يفعل بحارة فلنت ، ولن تضحكوا بعد ساعة كما تضحكون الآن ، أيها اللصوص ! ..

ثم اختفى .

التفت القبطان إلينا قائلاً :

– سيهاجموننا في الحال ، وآمل أن يلزم كلٌ منكم موقعه ، ويحسن التصويب إلى هؤلاء القراصنة ، لدينا الآن نحن السبعة عشرون بندقية ، وهي كافية إذا أجدنا استعمالها ، رتبوا الحطب على شكل أربع طاولات نضع فوقها البنادق المحشوة ، وعلى الطاولة في الوسط كدسوا السيوف ، وأطفئوا النار لئلا يصيبنا دخانها ، وبعد ساعة تشتد حرارة الشمس .

فأطاع الجميع أوامر القبطان مسرعين ، فرُتبت الطاولات وأُطفئت النار ، ثم التفت إلى القاضي وقال له :

– أنت يا سيدي تجيد التصويب ، فدافع عن الناحية الشمالية مع غراي ، فهي الأصعب وفيها خمس بنادق ، وأنت يا هنتر مع جويس دافعا عن الناحية الغربية ، لكل منكما موقعان ، وأنت يا دكتور دافع عن الباب ، وأطلق الرصاص من الفتحات ، وأما أنا وهوكنس فسوف نلقم لكم البنادق ونساعدكم بالسيوف إذا اقتضى الأمر ، لأننا لا نجيد التصويب .

كنا قد احتطنا لأنفسنا وأعددنا أسلحتنا ، واتخذنا مواقعنا . وتأخر الهجوم ، وأثرت فينا حرارة الشمس وأنهكت قوانا . فجأة سأل جويس القبطان :

– هل ينبغي لي أن أطلق النار إذا رأيت أحداً يقترب .

– طبعاً .

– أرى أحدهم يقترب يا سيدي .

وصوب بندقيته وأطلق الرصاص ، وجاوبته طلقات غزيرة من ناحية الشجيرات ، وحسب القاضي عددها ، فكانت تسعاً من جهته وثلاثاً من جهة الطبيب وواحدة من جهة جويس وجهة هنتر .

فأستأنف القبطان كلامه بهدوئه المعتاد :

– سيكون هجومهم من الناحية الشمالية ، هل أصبت عدوك يا جويس ؟

– لا يا سيدي .

– لقم بندقيتك ، هذا لن يبدل من خطتنا شيئاً ، إذا كان هجومهم من الشمال فليس معنى ذلك أن نهمل النواحي الأخرى ، فليلزم كل منكم موقعه ، ويسعدني أن أقول لكم إن الموقع حصين لم تخترقه رصاصة واحدة ، ولكنهم إذا اقتربوا فسوف يختلف الأمر .

ما كاد القبطان ينهي كلامه حتى ارتفعت ضجة هائلة من الناحية الشمالية ، وفتح القاضي وغراي النار .

كانوا حوالي عشرة قراصنة مندفعين نحو الحصن ، ولعلع الرصاص من الجهات الأخرى ، فأصابت رصاصة أخمص بندقية الطبيب فكسرته ، وتسلق القراصنة السياج ، وكان القاضي وغراي يطلقان النار باستمرار وأنا ألقم بنادقهما ، فسقط ستة رجال وجرح آخر ، فهرب يجري بين الأشجار .



على الرغم من صلابة الدفاع فقد توجه أربعة رجال نحو الكوخ ، على حين هاطل علينا الرصاص الغزير من أعدائنا المجهولين .

كان أندرسون رئيس البحارة في طليعة المهاجمين ، فسارعوا إلى الفتحات التي تنطلق منها النار وأفرغوا فيها بنادقهم .

وملأ الدخان الكثيف الكوخ ، وسمعت صوت البنادق والسيوف ثم صوت القبطان ينادي :

– اخرجوا يا شباب ، اخرجوا واحملوا سيوفكم !

كنت مسلحاً فركضت إلى الخارج ، وسمعت وقع خطوات ورائي ، فلم ألتفت لأرى من يطاردني ، ونادى القبطان ثانية :

– تجمعوا خلف الكوخ ، كلكم خلف الكوخ .

وبدا لي صوته متقطعاً ضعيفاً ، وأطعته ، فدرت نحو الكوخ وسكيني مرفوع بيدي ، وعلى مسافة خطوات رأيت الطبيب يطعن أحدهم طعنة نجلاء ويسقط أرضاً .

وفجأة انتصب أحدهم أمامي ، إنه أندرسون الضخم رئيس البحارة ، فرفع فوق رأسه سكيناً كبيرة وهو يشتمني :

– هل خفت ؟

لم يكن لدي الوقت للخوف ، فأردت أن أقفز جانباً ، فانزلقت قدمي في الخندق ورأسي إلى الأسفل ، ومرت لحظات قبل أن أنهض من سقطتي ، فلاحظت مندهشاً أن سير المعركة قد تبدل لمصلحتنا .

ورأيت أن أحد القراصنة يتسلق السور لينضم إلى رفاقه الأربعة ، فلم يكن لديه الوقت إذ اخترقت رصاصة غراي صدره ، وأطلق غراي الرصاص على أندرسون الذي فقد توازنه وهو

يلاحقني ، وقتل الطبيب أحد المهاجمين ، على حين صرع القاضي واحداً آخر .

ورأى القراصنة أن هجومهم قد فشل ، فقفزوا فوق السياج هاربين ، وصرخت باعتزاز وأنا أشير إلى القراصنة الخمسة الممددين على الأرض :

– لقد انتصرنا !

فقال الطبيب :

– دفعنا ثمن النصر غالياً .. هيا معي .

ودخلنا الكوخ ومعنا غراي ، كان الدخان قد انقشع ورأيت لشدة حزني أن كلام الطبيب عين الصواب .

هنتر قرب المتراس بلا حراك ، وجويس يجود بروحه غير بعيد منه ، وفي وسط القاعة كان القبطان مستنداً إلى كتف القاضي وهو شاحب الوجه ، يعض شفتيه لئلا يصرخ من الألم . فجرى الطبيب إليه .

وسأل القبطان بصوت خافت :

– هل هربوا ؟

– نعم ، ولكن دعني أتفحص جراحك !

– كم سقط منهم على الأرض ؟

– خمسة وفيهم أندرسون .

فقال القبطان وبريق الفرحة في عينيه :

– لم يبق منهم سوى تسعة مقابل خمسة ، المعركة متكافئة ، نعم عالجني يا دكتور ! أريد أن أشفى لأشفي غليلي منهم .

الفصل العاشر

فكرة يقترحها جيم

تركنا القراصنة بسلام الليلة كلها ، فانشغلنا بجراحنا حتى الصباح ، وحضّرت مع القاضي طعام العشاء ، ولا أدري أي نوع من الحساء أنتجته قدورنا ، لأني كنت شديد الانفعال ، والطبيب يضمد الجرحى بقربنا ، وأنينهم يعذب قلبي .

كان أحد القراصنة يصارع الموت ، وعلى الرغم من العلاج الذي قُدم له ، فإنه لم يعش سوى ساعات ، وكذلك الأمر بالنسبة لهنتر المسكين ، الذي توفي فجراً دون أن يستعيد وعيه .

وظل القبطان سموليت الجريح الوحيد لدينا ، وكان جرحه بليغاً ، ولكن ليس قاتلاً ، فقد أصابت رصاصة لوح كتفه ومسّت

رئته ، واخترقت رصاصة أخرى ساقه ، وضمن له الطبيب الشفاء على شرط ألا يتحرك أو يرهق نفسه بالحديث .

وخيمت علينا الكآبة لتذكر موتانا ، فكم من الرجال ماتوا من أجل هذا الكنز المشؤوم ؟ وكم تحكم في مصير آخرين ؟ فلو وضعوا أمامي الآن ثروات فلنت كلها لنظرت إليها نظرات الرعب والاحتقار ، لما سببته من المصائب والجرائم البشعة .

وفيما أداول في رأسي مثل هذه الأفكار ، اقترب مني الدكتور وقال :

– ما هذا الجرح في مرفقك يا جيم ؟

وذكرني الطبيب بأني تلقيت ضربة سكين عند التقاء العظمين ، ولكن نشوة الانتصار وحزني على رفاقي قد أنسياني ما أنا فيه ، فقلت :

– جرح بسيط .

– لا بأس ، سأضمده ونستريح ، نم هانئاً لأن غراي والقاضي سوف يتناوبان الحراسة ، فأنت مفخرة لبلدك .

قال الطبيب ذلك ، وقرص أذني بحنان وابتعد .

حين لا آكل كثيراً أنام في الحال ، وقد كنت منهك القوى أثرت فيَّ الانفعالات والآلام . واستمر نومي حتى الضحى ، فنهضت لأرى أصحابي قد أنهوا فطورهم ، فشعرت بالندم لأني تركت لأصحابي مهمة حراسة الحصن ؟

ودفع إليَّ غراي حصتي من الطعام . كان الموتى قد دُفنوا ، وقد غطوا بطبقة من الطحالب والأزهار ، وأما القبطان فقد كان أقل شحوباً من الأمس ، يصغي باهتمام إلى خطط الدكتور التي يعرضها عليه وعلى القاضي .

قال الطبيب بعد أن حصل على موافقتهما :

– سأعود سريعاً ، لا تخافا سأكون حذراً ، ولن يهاجمكم أحد ، لأني سمعتهم يغنون ويصرخون حتى ساعة متأخرة من الليل ، وسوف يضطر سيلفر أن يكون صبوراً ، وأنا متأكد أن لديهم بعض المرضى والجرحى ، هذا يوم راحة يلوح في الأفق .. إلى اللقاء .

وضع الدكتور قبعته وجعل مسدسيه وسيفه في حزامه ، وتأكد من أن في جيبه خريطة فلنت ومنديلاً أبيض كبيراً ، وحمل البندقية

ومضى ، وتسلق السور بحذر ثم تسلل بين الأشجار بسرعة وصمت . قال لي غراي :

– إن الطبيب مجنون إذ يخاطر بنفسه .

– مجنون ؟ تأكد من أنه أعقل مني ومنك .

وفكرت بأن الوقت قد تجاوز بعد الظهر ، وأن بين غين يتوقع زيارة أحدنا له بين الصخور .

– ولكن كيف يخرج في مثل هذا القيظ اللاهب ؟

وكانت ملاحظة غراي صائبة ، لأن الحرارة لم تبلغ شدتها منذ وصلنا الجزيرة كما بلغتها اليوم ، وكانت ملابسي تلتصق بالصمغ الذي يفرزه الصنوبر في أرضية الكوخ وفي سقفه .

ونهضت لأتمدد قرب الجدول ظاناً أن رطوبة الماء سوف تنعشني قليلاً . ولم يطب لي البقاء ، فالشمس لاهبة ولا فائدة من التعرض لها ، لِمَ لم يأخذني الطبيب معه ؟ ولِمَ لا أذهب في نزهة حتى الإسبانيولا لأرى ما يحدث هناك ؟ لقد حدثني بين غين عن زورقه ، وأشار إلى الصخرة التي أخفاه تحتها ، ولا أسهل من جولة في البحر والعودة منه ، ولم أفكر لحظة بأن غيابي سيشغل بال رفاقي

علي ، ولن يبقى في الحصن سوى شخصين مسلحين ، القاضي تريلوني وغراي . كان الذهاب جنوناً ، ولكني لم أستطع مقاومة هذه الرغبة ، كما لم أقاوم سابقتها منذ يومين ، ألا وهي مصاحبة المتمردين إلى البر .

نظفت الكوخ بسرعة وغسلت الصحون ، ثم انتهزت فرصة انشغال القاضي وغراي بتغيير ضمادات القبطان ، فملأت جيوبي بالبسكويت ، وجعلت في حزامي مسدسين وسكيناً ، وكان معي من معركة الأمس ما يكفي من البارود والخردق .

وخرجت إلى السياج كأني سأجلب الماء من الجدول ، ثم عبرته بقفزة واحدة ، وابتعدت قبل أن ينتبه إليّ رفاقي ، أو يرفعوا أصواتهم بالنداء .

وجريت متحاشياً السير على الأوراق والأغصان اليابسة ، واتجهت إلى الشاطئ الشرقي من الجزيرة وحاذيته وأنا أختبئ بين الأدغال ، ولمحت في بعض النواحي أمواج البحر وهي ترمي بالزبد ، ويصلني هديرها المتواصل .

ورأيت من بعيد صورة السفينة (الإسبانيولا) تنعكس على صفحة الماء ، وفوق صاريها ترفرف راية القراصنة .

على مسافة من السفينة ، كان أحد القاربين يتوجه ناحية البر ، وسيلفر ممسك بالدفة يصدر أوامره إلى البحارَيْن اللذين لبثا على سطح السفينة . وقد رأيتهما بوضوح ، أحدهما هاندس ، والثاني بحار يضع على رأسه قبعة حمراء ، وكلاهما يخاطبان سيلفر ويمازحانه .

وأحسست بالهواء البارد بدلاً من حر العصر الشديد ، واقترب المساء ، فهل أصل إلى زورق بين غين قبل حلول الظلام ؟

وكم كان فرحي عظيماً حين رأيت الصخرة البيضاء على مسافة ميل ، لم أضل طريقي إذن ، وتأخرت في قطع المسافة لأني خفت أن يلحظني المتمردون ، ومشيت على أربعتي ، حتى تجرحت يداي وركبتاي ، ووصلت أخيراً إلى الصخرة البيضاء .

كان الوقت ملائماً لأن الضباب قد ارتفع ، وجعل الليل أكثر إظلاماً ، وفي البعيد كان يتلألأ النور ويتحرك مع حركة الأمواج .

إنه مصباح المقصورة الذي أضاءه البحاران ، وعلى الضفة كان سيلفر وما بقي من بحارته جالسين حول نار ملتهبة ، وكانت ريح الشمال تحمل إليّ مقاطع من أغانيهم التي يرفعون بها أصواتهم ، وكأنما لم يمت نصف أصحابهم منذ البارحة .

وتفحصت زورق غين ، كان مخفياً داخل صخرة تغطيه الأعشاب ، وتحجبه جلود الماعز عن الأنظار ، وهو صغير الحجم حتى بالنسبة إليّ ، مصنوع من الخشب غير المنجور ، وقد فرش في قعره جلد الماعز ، ورمي مجذافان فيه .

ويذكرني زورق غين هذا بزورق الهنود الحمر ، ولكن له صفة ممتازة بالنسبة إلى مهمتي ، هي أنه خفيف يسهل نقله .

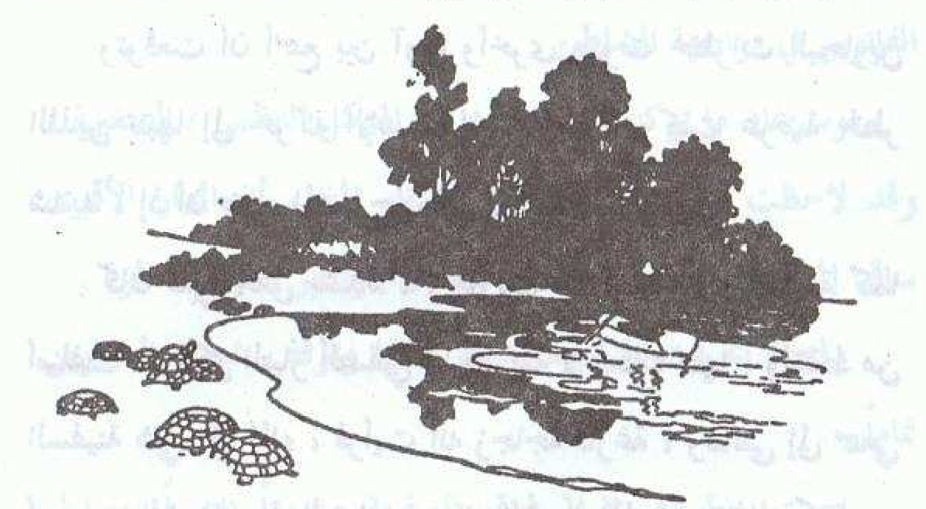
وجلست بجانبه لكي أستريح وأفكر فيما سأفعله .

لقد أصبحت الإسبانيولا في حوزة القراصنة ، فلِمَ لا أقطع الحبال المتصلة بالمرساة ، فتسير السفينة في البحر على غير هدى ، وأهزأ بهؤلاء المجرمين ، فخير لهذه السفينة أن تغرق أو تحملها الأمواج على أن تصبح وكراً للقراصنة .

أكلت قطعتي بسكويت ، وحملت الزورق على كتفي واتجهت نحو الضفة . كان الظلام دامساً .

مشيت في أرض شائكة ، ثم هبطت في منحدر رملي حتى وصلت إلى الشاطئ ، ودخلت الماء حتى وسطي ، ورميت الزورق على سطحه ، وقفزت إليه بأنشط ما أستطيع .

لم يكن توجيه القارب أمراً سهلاً ، واكتشفت أن أفضل شيء أفعله هو ألا أتحرك لأن أقل حركة تجعل الماء يدخل الزورق ، فأضطر إلى نزحه بقبعتي وإلا غرق بي .



وحاولت استخدام المجذافين عدة مرات فلم أستفد منهما ، فوضعتهما أمامي وانتظرت ، فدار الزورق حول نفسه ، وتلك

طريقته في السير كسرطان البحر ، ولولا التيار لما وصلت إلى الإسبانيولا .

ولم أشعر بوصولي إليها ، لولا أن أحد حبال مرساته أوقفت سير زورقي .

فلم أضيع الوقت لأن السفينة لم تكن تشد حبل المرساة بسبب رياح الشمال ، فتناولت سكيني وقطعته .

حينئذٍ بدأت السفينة تدور ببطء عبر التيار الذي ألصقني بها ، وكأن الزورق جزء منها .

وتوقعت أن أسمع بين آونة وأخرى صوت خطوات البحارين اللذين تنبها إلى حركة الإسبانيولا المفاجئة ، وكنت عرضة لخطر شديد ، إذ أن ضوء المصباح يكفي لاكتشاف الزورق .

كان قلبي يخفق بشدة ، وحاولت أن أبتعد عن السفينة كما أسلفت ، ولكن التيار ألصقني بها بطريقة لا فكاك منها ، وسقط من السفينة شيء في الماء ، فرأيت أنه زجاجة فارغة ، وتناهى إلى سمعي أصوات الشجار بين البحارين ، إنه الشجار المعتاد بين السكارى ،

وتأكدت من الصرخة التي أطلقها هاندس أنه المنتصر في هذا الشجار .

أثناء ذلك كان سيلفر ورجاله يغنون اللازمة التي طالما سمعتها في فندق (الأميرال بنبو) وعلى صخور قريتي :

" إنهم خمسة عشر فوق صندوقِ ميّتٍ "

وكانت السفينة والزورق الملتصق بها ينزلقان فوق الماء أمام مخيم القراصنة الذين شغلوا بالخمرة والغناء عن مراقبة البحر .

والحق أن السفينة حين دارت حول نفسها لم يعد ضوء الفانوس في مواجهة الشاطئ .

وسرعان ما تركنا وراءنا جزيرة (الهيكل العظمي) الصغيرة ، وقد لاحظت من موقعنا بالنسبة إلى نار المخيم أن التيار الأقوى ساقنا إلى عرض البحر ، وأصبح الزورق يتراقص بطريقة خطرة .

وفجأة انحرفت السفينة انحرافاً عنيفاً وتوقف شجار البحارين تماماً .

سمعت خطوات ثقيلة فوق السفينة وصوتاً ناعساً يتساءل بلهجة مذعورة :

– ماذا يحدث هنا ، ماذا يحدث ؟

فاستلقيت في قعر الزورق وأخفيت جسمي قدر الإمكان ، ولاحظت أن السفينة قد غيَّرت اتجاهها ، وكأنما حرَّكها البحَّار ، فانفصل الزورق عنها فجأة وجرفه التيار .

لقد تخيلت نهاية أخرى لمغامرتي هذه ، فرقدت في قعر الزورق وغطيت نفسي بجلد الماعز ، وقد استسلمت لقدري ، وغلبني النعاس فنمت ، وأنا أحلم كأنني في فندق (الأميرال بنبو) بين أمي وأبي .

الفصل الحادي عشر

جيم يصبح بمرتبة قبطان

أيقظتني الشمس بحرارتها ، فجلست في قعر الزورق ونظرت حولي . لم أكن بعيداً عن جزيرة الكنز ، وأمامي على مسافة ربع ميل الصخور الضخمة التي تُشرف عليها هضبة اللورغينت .

وأتاحت لي معرفتي بجغرافية الجزيرة أن أتجه بدقة حيث أريد ، فلم أدفع قاربي إلى هذه الناحية ، لأن أمواجها قوية وصخورها عالية لا أستطيع تسلقها ، بالإضافة إلى أن أسود البحر تزحف على ضفافها .

فآثرت الموت من الجوع في زورقي على مواجهة هذه الحيوانات ، وعزمت على الانتظار ، وبدا لي كأن الأمواج تعبث

بالزورق وتدور به حول الجزيرة ، وتدفعه إلى شريط من الرمال الصفراء تعلوها صخور عمودية تدعى (صاري المؤخرة) .

وفي الشمال يوجد رأس " الغابات " الذي تنحدر أشجاره حتى البحر ، وأنا أعلم أن التيار سيقودني حتماً إليه ، لأن الزورق توقف عن التقاذف ، وهو ينساب مع التيار وموجاته الواسعة ، ولم يكن يعلو إلى ذرى هذه الأمواج ، بل يسايرها برشاقة أذهلتني .

مع طلوع النهار عادت إليّ شجاعتي ، وحاولت التجذيف ، ولكن الزورق اضطرب توازنه ، وردني الزبد إلى الحذر والحيطة .

فجلست ساكناً وقد أسلمت إلى التيار قيادي ، وتركت إلى الأمواج مصيري ، ولكن إذا لم أستطع توجيه الزورق ، فهل آمل في الوصول إلى الجزيرة ؟ وحين رأيت الساحل المزروع بالأشجار قريباً مني اشتدت رغبتي في مغادرة الزورق وقد أحرقتني الشمس وجفت شفتاي .

آه .. لو استطعت التمدد في ظل هذه الأشجار والارتواء من النبع الرقراق تحتها !

كان رأسي يضج بالأفكار المتضاربة ، والدوار يعصف بي ، وأشعة الشمس المنعكسة على الماء تبهر بصري ، والماء المالح يحرق عيني ، حينئذٍ رأيت الإسبانيولا ، كانت أشرعتها مبسوطة وتتجه إلى الشمال الغربي ، ثم انحرفت إلى الغرب واتجهت صوبي ، فقلت لنفسي :

– لقد رآني القراصنة وهم يطاردونني .

ولكن الإرهاق والعطش واليأس جعلتني أحس بالفرحة إن وقعت أسيراً بأيديهم .

فجأة غيّرت السفينة اتجاهها ثم توقفت تماماً ، ثم استأنفت سيرها ، وتكرر هذا مرات عديدة ، فأدركت أن الإسبانيولا تسير على غير هدى .

ولعل بحارتها نائمون أو مرضى ، واستعدت قواي ، وقد خطرت لي فكرة ، هل أستطيع الصعود إلى السفينة والمجيء بها إلى القبطان ؟ وبدت لي فكرة رائعة بحيث عزمت على توجيه الزورق بحذر شديد وصبر عظيم .

كدت أحجم عشرات المرات عن التجذيف ، وقد أيأسني اضطراب الزورق وإشرافي على الغرق ، ولكني لم أستعد عزمي حتى ساعدتني المصادفة ، فقد هبت ريح الشمال ونشرت أشرعة الإسبانيولا ، فتوجهت نحوي بخط مستقيم وسرعة هائلة ، ورأيتها مقبلة عليّ كأنها جدار مرتفع ، وبحركة غريزية لا تفكير فيها ، مددت ذراعي وأمسكت بحبلٍ متدلٍ من سطحها وجذبت جسمي إلى أعلى ، على حين تناهى إلى سمعي صوت الزورق يصطدم بالسفينة ويغوص في الماء ، واستعنت بقدميّ ويديّ لأتسلق الحبل ، وكنت ألهو بهذه اللعبة مع أطفال الحي ، أما الآن فالأمر مختلف ، إذ أن تحتي هوة فاتحة شدقها لتبتلعني .

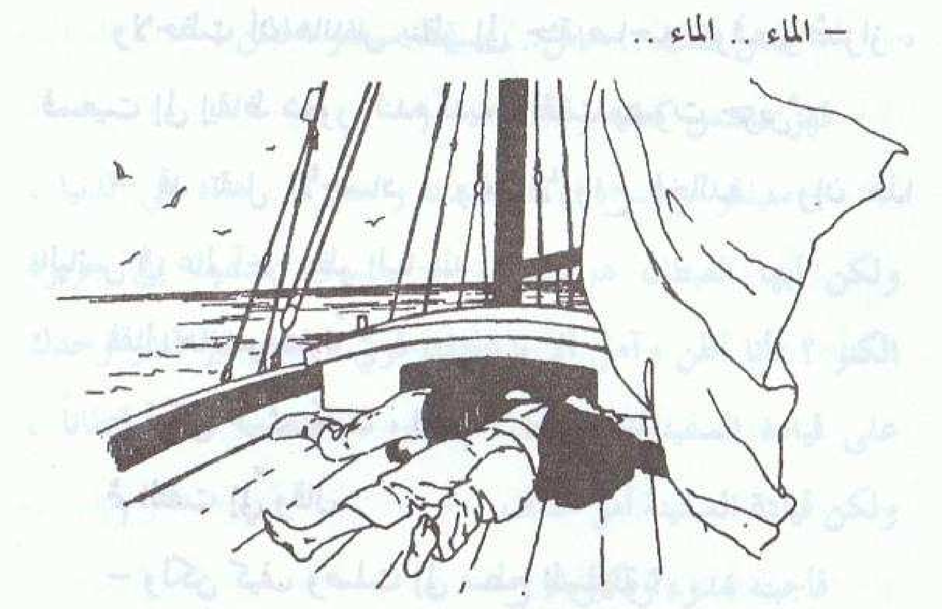
وحين وصلت إلى الصاري المائل في مقدمة السفينة ، وكان قلبي يدق وكأنه سينفجر ، واسترحت عليه مدة قبل أن أنزلق إلى سطحها ، كانت السفينة في حالة من القذارة لا توصف ، والزجاجات الفارغة تتدحرج هنا وهناك .

وتقدمت بحذر باحثاً عن الحراس ، وأطلقت صوخة ذعر حينما رأيتهما على الأرض يتدحرجان مع حركة الأمواج مثل

الزجاجات الفارغة ، أما البحار ذو الطاقية الحمراء فقد كان ممدداً ، وقد بسط ذراعيه والابتسامة على وجهه ، وأما هاندس فكان مرتمياً على الحاجز ، واصفرار وجهه يدل على أنه ميت ، لولا أنين ضعيف يصدر عنه من حين إلى آخر .

وقد لمحني ، ولكنه منهك القوى غير قادر على التعبير عن دهشته أو الإحساس بها ، ثم نطق بصوت ضعيف :

– الماء .. الماء ..



فعطفت على هذا المحتضر بالرغم من خياناته المتوالية ، وهبطت إلى العنبر ، فغسلت وجهي ورأسي وشربت حتى ارتويت ،

وحملت معي بعض الطعام ، وجئت إليه بزجاجة ماء ، وسألته وأنا ألتهم الطعام :

– هل أنت مجروح ؟

– لو أن هذا الطبيب هنا لاختلف الأمر ، ولكني عالجت نفسي بنفسي فأنتن جرحي ، أما هذا الذي تراه على الأرض ، فقد انتهت حكايته وحُلت مشكلته ، فالموتى لا يعودون .

ولاحظت أن هاندس ينظر إلى جثة صاحبه بخوف واشمئزاز ، فسعيت إلى إيقاظ شعور الندم لديه ، فقلت بصوت حزين :

– قد تقتل الأجساد ، وأما الأرواح فخالدة ، وإن هذا البائس في عالم آخر ينظر إلينا منه .

فقال هاندس هازئاً :

– ليكن حيث يكون ، المهم ألا يكون هنا .

ثم التفت إليَّ وقال :

– ولكن كيف وصلت إلى سطح السفينة ؟

ووجدت أنه قد آن الأوان لأظهر بعض سلطتي ، فقلت :

– لا تهم الطريقة التي جئت بها ، والشيء الوحيد الهام هو أني القبطان ، ويجب عليك إطاعة أوامري ، ومنذ هذه اللحظة لم تعد السفينة تابعة للقراصنة ، بل هي تابعة لملك إنكلترا وجديرة بحمل الراية الوطنية ، وسوف أُنزل هذه الخرقة السوداء عنها .

وقطعت في الحال الحبل الذي يربط علم القراصنة ، فسقط على الأرض ، فحملته ورميته إلى الماء ، وصرخت بأعلى صوتي :

– عاش الملك .. عاش .. يسقط سيلفر الخائن !

فهزَّ هاندس كتفيه وقال :

– سيلفر أو سواه ، لقد فشلنا وانتصرتم ، هذه هي الدنيا ، ولكن أيها القبطان هوكنس ، ألن تسوق السفينة إلى جزيرة الكنز ؟ فأنا أظن وآمل ألا يزعجك قولي ، إنك غير قادر وحدك على قيادة السفينة ، فالبحّار الصغير قد ينصب نفسه قبطاناً ، ولكن قيادة السفينة أمر مختلف .

فأجبته بهدوء وبكبرياء :

– ولكني عازم على إرساء الإسبانيولا في الخليج الشمالي .

– طبعاً ، ولكن الفرق واسع بين القول والفعل ، وقد أنجزت مع هذا البحّار مهمة نشر الأشرعة ، وسيكون سهلاً عليك إدارة الدفة وتوجيه السفينة بحسب تعليماتي ، ولذلك أقترح عليك ميثاقاً. فقلت له :

– إني أقبله .

نطقت هذه الجملة بكثير من الاحتقار ، لأني لمحت في نظرات هاندس المجرم المكر والغدر ، فكان عليَّ الحذر منه ، ولم يكن لدي وسيلة أخرى للتوجه إلى البر ، وإن اعتزازي برتبة قبطان التي حصلت عليها منذ دقائق لم ينسني ما قاسيته في توجيه الزورق ، وشعرت أني قادر على إدارة دفة السفينة في هذا الجو الرائق والبحر الساكن ، ولكن إرساء السفينة دون حادث مشكلة عويصة .

واستأنفت قولي له :

– إني أقبله ، وسوف أشفع لك عند القبطان سموليت .

فقال هاندس :

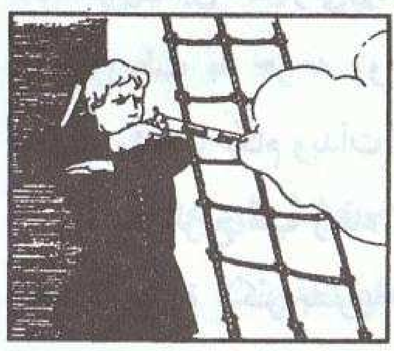
– اتفقنا ، أعطني منديلاً أو قطعة قماش أعصب بها ساقي ، فهي تؤلمني أشد الألم ، وأعطني طعاماً وماءً ، وفي مقابل ذلك أرشدك إلى توجيه السفينة .

مضيت إلى صندوقي وبحثت عن منديل كانت أمي قد أهدته لي ، وربطت به جرحه ووضعت بجانبه الطعام والماء ، بعد أن شددت وثاقه بإحكام وبدأت أدير الدفة بتوجيه منه .

كانت الريح تهبُّ رُخاء ، ولم تنقض دقائق حتى دفعت السفينة بمحاذاة جزيرة الكنز بسرعة فائقة تتيح لنا الدوران حول النقطة الشمالية ودخول الجزيرة قبل الجَزْر البحري .

وانطلقت الإسبانيولا تنساب على صفحات الماء كأنها البجعة ، ورأيت مناظر الجزيرة تتوالى أمامي من هضاب وغابات ، وشعرت بالسعادة تجتاح كياني كله ، فقد انتهى هربي الصبياني بانتصار عظيم ، يتيح لرفاقي العودة إلى إنكلترا . وأحسست بالفخر يهزني ويملأ قلبي فرحاً ، ولكن طيفاً من الجزع يلوح لي خلال ذلك كله ، وألمحه في تلك الابتسامة الماكرة التي ترتسم على شفتي هاندس الغادر .

الفصل الثاني عشر
فائدة شراع الميزان



درنا حول الرأس الشمالي للجزيرة ، ودخلنا الخليج حين قال لي هاندس :

– يا قبطان ! أوقف السفينة الآن لأن المد لم يبدأ بعد .

وأدركت صدق كلامه ، فأوقفت السفينة بعد محاولات عديدة ، ثم جلست آكل وأشرب ، ودفعت إلى هاندس بعض الطعام والشراب .

ولاحظت على وجه هاندس محاولة للتفكير لم يعتد عليها ، وتبين لي أن هذا الرجل بالإضافة إلى مكره شديد الغباء ، فقال لي بعد أن أنهى طعامه ومسح فمه بيده :

– اعذرني يا قبطان ، ولكني أريد أن أقضي حاجة طبيعية ، فهل تسمح لي بالنزول إلى المراحيض .

أدركت أن هاندس يريد إبعادي عن المكان لينفرد بنفسه ، فتظاهرت بأني لم أفهم غرضه ، وقلت له :

– حسناً .. سأطوّل لك الحبل حتى تستطيع الوصول إلى العنبر السفلي ، وسوف أنتهز هذه الفرصة لأجلب لك بعض الماء والطعام ، فماذا تريد أن تأكل ؟

والتمع بريق من الغدر في عينيه ، وقال :

– لم آكل الفاكهة منذ مدة ، وأظن أن في العنبر بعض العنب .

فهبطت الدرج وأنا أحدث أكبر ضجة ممكنة ، ثم نزعت حذائي وتسللت إلى الناحية الثانية من السفينة ، ودخلت مقصورة القيادة فاختبأت فيها لأرى ما يفعله هاندس .

وكانت شكوكي في محلها ، إذ أن هاندس مشى على أربعته وهو يتحامل على نفسه من شدة الألم ، وعبر سطح السفينة حتى

وصل إلى كومة من الحبال ، وجذب منها سكيناً كبيرة قد جفت عليها الدماء ، وخبأها تحت ثيابه ، ثم رجع زاحفاً إلى مكانه .

لقد رأيت ما يكفي لكي أعلم أن هاندس قادر على الحركة بسرعة وبسهولة ، وأن جرحه لن يعيقه عن ارتكاب جرائمه ، وأنه لم يبق لديه سوى التخلص مني بطعنة سكين قاتلة .

وظننت أنه لن ينفذ جريمته قبل رسو السفينة تماماً ، فهو لا يستطيع إدارة الدفة وحده ، ومقاصدنا مشتركة ، فكلانا يريد أن يجعل السفينة في مأمن لكي يستخدمها أصحابه .

وفكرت :

– إن لدي بضع ساعات .

ورجعت إلى العنبر ، وجئت ببعض العنب والبرتقال ، فوجدت هاندس ملتفاً حول نفسه ، متظاهراً بأن الألم قد أنهك قواه ، وقد أغمض عينيه ، وحين دنوت منه قال بصوت متهالك :

– آه أيها القبطان ، لقد تأخرت .. إني أحس بعياء لم أحسه في حياتي كلها ، ولا بد لي من استعادة قوتي .

واندفع يأكل العنب بشراهة مصطنعة ، فلم أستطع أن أمنع نفسي من مخاطبته باحتقار :

– ينبغي لك بدل الاهتمام بصحتك الاهتمام بضميرك ، فقد قتلت رجلاً من أصحابك وغدرت بالقبطان ، وأنت تعيش منذ زمن طويل في الخطيئة والكذب ، ولو كنت مكانك لتبت عن هذه الجرائم ورجعت إلى ربي .

فقال بصوت هادئ :

– لقد أمضيت ثلاثين سنة في أعالي البحار ، أتلقى الأوامر من المتعجرفين والأنذال ، ولم تعلمني مهنتي البكاء على الحمقى والمغفلين ، وأدركت أنك إما أن تَقْتُل أو تُقتل ، أو أن تَسْرق أو تُسْرق ، وأن الذي يضرب أولاً هو على حق ، فلن تؤثر فيَّ مواعظك ، لأني جلدة بالية لا يمكنك دبغها .

فقلت له باستهزاء :

– الويل لك إذن !

فقال هاندس وهو يقلب برتقالة بيده :

– ليس معي سكين لأقشر بها هذه البرتقالة ، حتى لو كانت معي فإني لا أقدر على استخدامها ، والآن لنبدأ المناورة فإن التيار ملائم .

كان هاندس ملاحاً ممتازاً ، وقد أطعت أوامره حرفياً ، فرست السفينة بجوار الساحل بأمان تام ، وقلت له :

– ولكن كيف ننطلق ؟

– سوف نستعين بتلك الأشجار المحيطة بالساحل ، فنقطعها وندفع بها هيكل السفينة بعيداً ، ولكن الآن وقت الرسو لا وقت الإبحار .

وكنت سألته هذا لأعرف كيف نبحر من جديد .

تقدمت السفينة ببطء ، ثم انسحب الماء من تحتها بفضل الجَزْر ، فانقلبت في الرمل على جنبها وتوقفت تماماً .

لقد أنستني عملية الرسو العدو المتربص بي ، وملت بجسمي إلى الحاجز أتأمل الماء حين سمعت صوت خطوات ورائي ، فقفزت جانباً لأتحاشى هاندس والسكين مشرعة بيده ..

وأطلقت صرخة موعبة ، فاندفع إليَّ مرة أخرى ، وبسرعة زودني بها الخوف جريت إلى الناحية الأخرى من السفينة ، وجذبت مسدسي من حزامي وصوبته نحوه ، فلم تنطلق الرصاصة بعد أن ضغطت لأن الكبسولة مبللة .

فصدرت عني صرخة فزع لأني كنت معتمداً على سلاحي هذا ، ولم يعد لديَّ الوقت لإعادة تلقيمه ، وارتد هاندس إليَّ والزبد يتطاير من فمه .

ومما صعَّب عليَّ الهرب أن السفينة مائلة وهي تنْزلق شيئاً فشيئاً في الرمال ، ثم هبطت دفعة واحدة واستلقت على خاصرتها ، وتدحرجنا معاً أنا وهاندس ، ولكني نهضت أولاً ، وأما هو فقد تدحرجتْ نحوه جثة البحَّار ومنعَتْه من النهوض ، فدفعها عنه وهو يشتم الميت .

ولم يكن يلزمني سوى لحظة واحدة لكي ألقم مسدسي ، لذلك صعدت إلى شراع الميزان في مقدمة السفينة ، واتكأت بظهري إليه ولقمته بكل أناة .

وحاول هاندس الصعود إليه ووجهه محمر من الغضب ، وكان يئن من الألم ، ويجر وراءه ساقه الجريحة ، فأمسكت مسدساً بكل يد ، وصرخت فيه وأنا أصوب إليه .

– هاندس ، لا تتقدم وإلا فجرت رأسك !

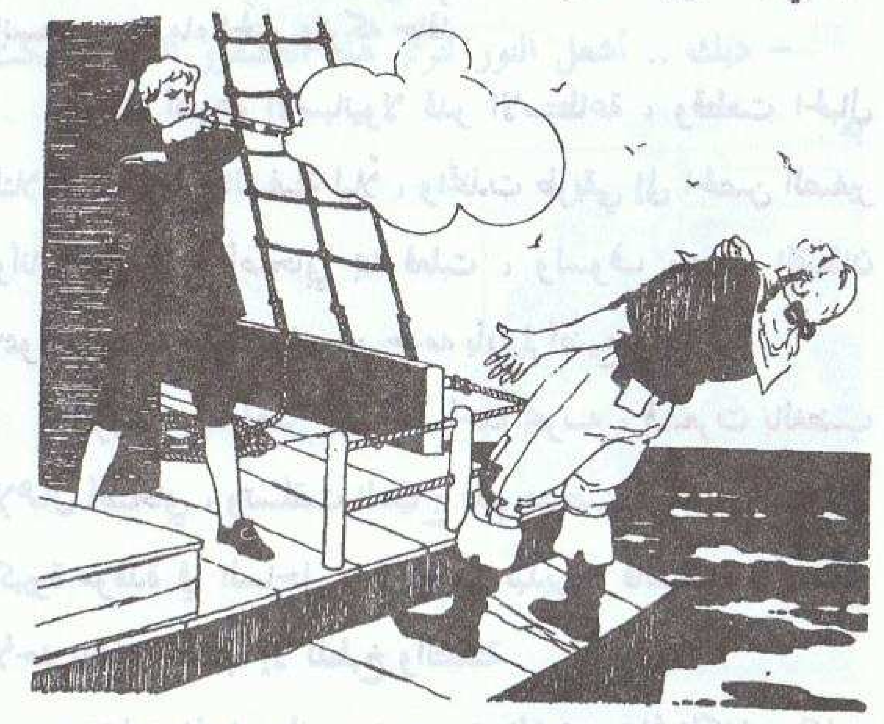
فتوقف مبهوتاً وهو يتظاهر بالمذلة والطاعة ، ويرجوني بصوت ضعيف :

– لا يا جيم .. يجب أن نتفاهم ، لقد غضبت وهذا خطأ مني ، لأن بحاراً ماهراً مثلي يأبى أن يتلقى الأوامر من فتى صغير السن مثلك ، وقد اخطأت ، فاغفر لي يا جيم !.

فقهقهت عالياً من الحالة المخزية التي ظهر عليها عدوي ، ونظرت إليه مزهواً بانتصاري ، ولكن ضربة قوية أصابت كتفي ، فصرختُ صرخة عالية من الألم ، لقد رمى هاندس سكيناً كأنها رمح ، وألصق كتفي بالصاري .

ولشدة الألم ودهشة المفأجاة وقع المسدسان من يدي بعد أن أصبتُ رأس هاندس ، فسقط إلى البحر ، وأنستني فرحة النصر

ألمي ، لقد كانت الضربة سطحية أصابت جلد الكتف ، وألصقت قميصي بالصاري ، فانتزعته منه .



لم يعد أمامي أحد أخشاه ، والماء يدفع جثة هاندس بهدوء إلى البر . وهبطت من أعلى الصاري أرتعد لذكرى هذه المعركة ، وسارعت إلى المقصورة حيث وجدت ما أعالج به جرحي .

شارفت الشمس على المغيب ، وريح الشمال تحركِ أشجار الصنوبر على الساحل ، حين وضعت قدمي على الرمل الذي انسحب عنه ماء الجَزْر وتركه جافاً .

طويت أشرعة الإسبانيولا قدر الاستطاعة ، وقطعت الحبال لئلا تحرك الرياح السفينة ليلاً ، واتخذت طريقي إلى الحصن الصغير وأنا أتخيل فرح أصحابي بما فعلت ، ولسوف يعترف القبطان سموليت نفسه على الرغم من حزمه بأني لم أضيع وقتي عبثاً .

اقتربت من الحصن فلم أجد أحداً يحرسه ، فشعرت بالغضب لإهمال أصحابي ، وتسلقت السياج فلم يعترضني أحد ، ورأيت ناراً كبيرة موقدة في الساحل ، يا له من تبذير ! فالقبطان لا يسمح لأحد بإيقاد الخشب إلا للطبخ والتدفئة .

ودخلت المتراس فسمعت صوت الشخير يملأ المكان ، فقلت لنفسي :

" سأدخل الغرفة دون أن يشعر بي أحد ، وستكون مفاجأة كبيرة للجميع " .

ما إن خطوت خطوتين حتى أمسكتْ برجلي يدٌ قوية آلمتني ، فصرخت ، وإذا صوت سيلفر يصيح في الظلام :

– ديك .. أشعل النور لنرى هذا العصفور الذي أمسكت به .

الفصل الثالث عشر
القبطان سيلفر

أنار ضوء المشعل داخل المتراس فانتابني يأس لم أحسه في حياتي كلها ، لقد كان فيه ستة من القراصنة ، وأحدهم ملقى في ناحية ورأسه ملفوف بضمادة ملطخة بالدم ، وأحاطوا بي ، فتلفت حولي وأنا أتمتم :

– أين هم ؟

فقال سيلفر وهو يشعل غليونه :

– آه .. هذا أنت يا جيم ؟ هذا لطف منك ! اجلس لنتحادث ، وانصرفوا أنتم للنوم .

لقد هلكت ، ولم يبق أمامي سوى أن أموت بعزة وإباء ، فوقفت مستنداً إلى الجدار وأنا أحملق في سيلفر بعينين حاقدتين ، فقال سيلفر :

– أنت فتى شجاع ، أحسنت ! ولكن أصحابك يعدونك خائناً وجباناً وناكراً للجميل ، انضم إلى جماعة القبطان سيلفر ، إنها الصفقة الرابحة أمامك الآن .

لقد آلمني رأي أصدقائي بي ، ولكن الطريقة التي تكلم بها سيلفر عنهم أكدت لي أنهم ما يزالون على قيد الحياة .

وسألني سيلفر بصوت حازم :

– هل ستنضم إلينا أم لا ؟ فكر جيداً ، فأنت حر في اختيارك ولسنا مستعجلين يا رفيق !

فقلت غاضباً :

– قل لي أولاً أين أصحابي ، ولِمَ أنت هنا ؟ لي الحق في معرفة هذا ؟

فضحك سيلفر هازئاً :

– الحق .. الحق ! هذه كلمة كبيرة يا هوكنس ، اعلم إذاً أن الطبيب ليفرسي قد تفاوض معنا هذا الصباح ، وقال إننا تعرضنا للخيانة جميعاً ، وإن السفينة قد أبحرت ، وتصالحنا وتعاهدنا على ألا نتقاتل ، وأن نسكن الحصن بما فيه من مؤونة ، هذا كل شيء ، ولكن لا أدري أين ذهبوا ! والآن ماذا قررت ؟

فقلت بحزم وتصميم دهشت لهما :

– نعم يا سيلفر لقد اخترت ، لن أكون قرصاناً ما حييت ومهما كان الثمن ، ولكني أقول لك شيئاً هو أنك هنا وليس لديك سفينة ولا كنز ولا عصابة ، وأنا المتسبب في هذا كله ، فقد كنت مختبئاً في برميل التفاح وسمعت حديثك مع ديك وهاندس ونقلته إلى الطبيب والقبطان ، وأما السفينة فقد قطعت حبل مرساها ، وقتلت الحارسين اللذين تركتهما عليها ، وأنا الذي خبأها في مكان لن تعثر عليه أبداً ، اقتلني إن أردت فلن أخشاك مطلقاً .

وتوقفت عن الحديث وقد تقطعت أنفاسي والقراصنة ينظرون إليّ مذهولين ، وسيلفر يرمقني بنظرة غريبة .

فقال :

– لقد خدعتني منذ البداية إذاً ؟ وخريطة بيلي بونز أخذتها أيضاً ؟

– نعم .

فقال أحد القراصنة وقد استل خنجره :

– ماذا تنتظر ؟ لنذبحه .

وقال آخر :

– توم على حق .

فصرخ سيلفر بصوت مخيف :

– اخرسوا والزموا أمكنتكم ! إني القبطان هنا ولا أقبل أن يتكلم أحد في حضرتي ، وإن أصبعاً من هذا الفتى تساويكم جميعاً ، فإذا لمس أحدكم شعرة من رأسه قتلته فوراً .

وذهلت لتصرف سيلفر ، وكنت أتوقع أن يخبط الأرض بقدمه الوحيدة ، ثم يهجم عليّ بسكينه ، وإذا هو يتولى الدفاع عني ضد أصدقائه القراصنة .

وكان جالساً فوق البرميل يدخن غليونه ، ولكنه يراقبهم من طرف خفي ، وقد اجتمعوا يتشاورون في زاوية المكان ، وبعد قليل تقدم إليه أكبر القراصنة سناً وقال :

– عفواً يا سيدي ! أظنك تتبع القواعد المتعارف عليها ، والطاقم ليس مسروراً من تصرفاتك وله الحق في التشاور .

وردد وراءه الآخرون :

– نعم هذه القواعد المتبعة .

ولم يجبهم سيلفر ، فخرجوا من الحجرة وكانت تصلنا أصواهم ، فالتفت إليّ وقال بصوت خافت :

– إنك مشرف على الموت يا جيم ، وإني مستعد لإنقاذك على أن تنقذني أيضاً .. إن في ضياع السفينة ضياعنا جميعاً ، وقد أدركت هذا حين لم أرها هذا الصباح ، لا أدري كيف فعلت للحصول عليها ، والمهم الآن أن ننقذ أنفسنا ، وآسف لأني لم أقدّر مواهبك حق قدرها ، ولا بأس أن نغدو أصدقاء منذ الآن ، ولكن عاهدني أن تنقذني من المشنقة إذا أنقذتك من أيدي هؤلاء الجبناء !

فقلت له :

– سأفعل ما بوسعي لإنقاذك ، أعاهدك !

وتنفست الصعداء ، ثم سألني سيلفر :

– ولكن أتعرف لِمَ أعطاني الدكتور خريطة الكنز ؟

فقلت له :

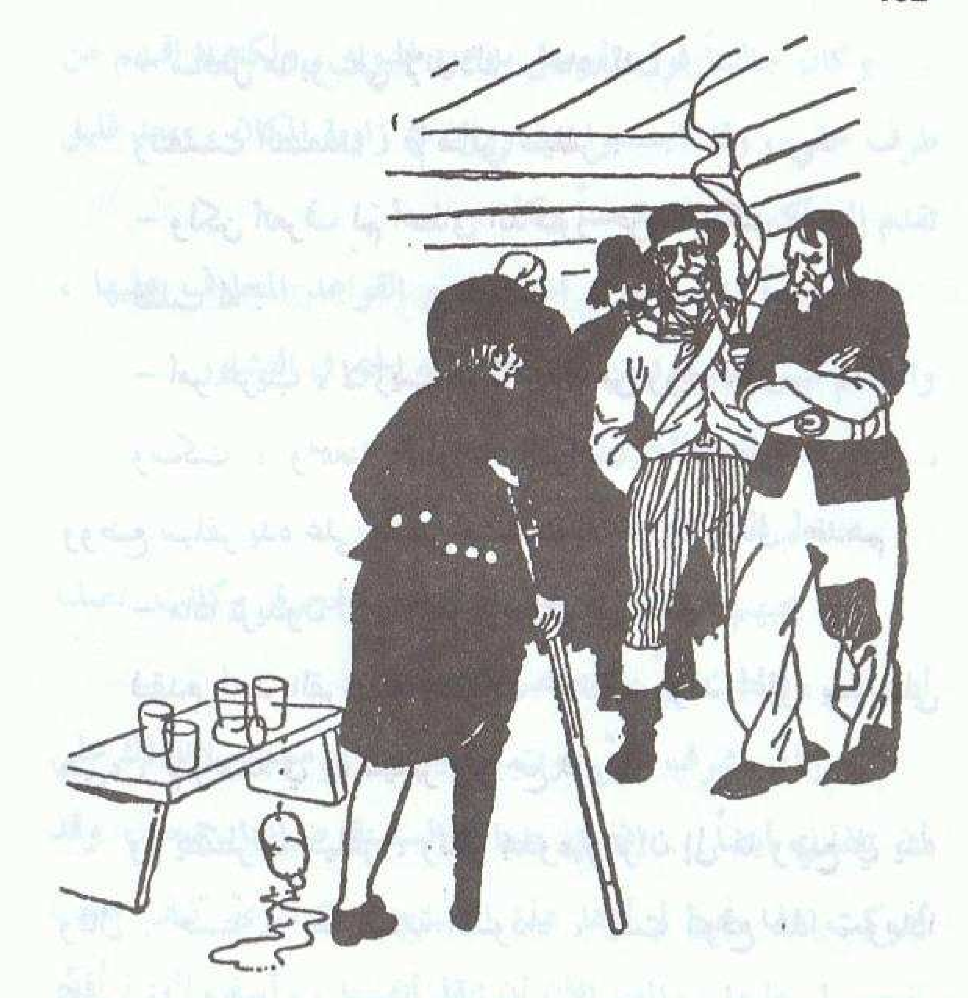
– أمر غريب ، لا ريب أن له هدفاً من وراء ذلك .

وسكت ، وسمعنا خطوات القراصنة ، فدخلوا صامتين ، ووضع سيلفر يده على مقبض مسدسه بلا مبالاة وسأل أحدهم :

– ماذا تريدون الآن ؟ هل وصلتم إلى اتفاق ؟

فتقدم أحد القراصنة بخطوات خائفة ، وقد أغلق يده على شيء ، ثم وضعه في يد سيلفر وتراجع فوراً .

ولم يضطرب سيلفر ، ونظر بهدوء واتزان إلى ما وضع في يده وقال : حسناً .. إنها البقعة السوداء ، كنت أتوقع هذا ، وماذا كتبتم عليها ؟



وقلب الورقة ، فقرأ فيها كلمة واحدة : " معزول " .

فقال بالهدوء ذاته :

– معزول ؟ كنت أتوقع هذه النزوة أيضاً ، ولكن يضحك كثيراً من يضحك أخيراً ، ومن منكم العالم الذي كتب هذه الكلمة ، وأنتم مجموعة من الأميين الجُهّال ؟

فقال أحدهم :

– لسنا الآن في مدرسة ، ولا يهمك إن كنا علماء أو جاهلين ، لقد مات أكثرنا ، ومن لم يمت أصيب بالحمى ، وفقدنا السفينة ولم نحصل على الكنز ، كل هذا بسبب قيادتك الفاشلة ، فلو أننا قتلناهم جميعاً قبل أن ينزلوا إلى البر لانتزعنا منهم الخريطة وحصلنا على الكنز ، ودون أن يُقتل واحد منا . ثم تركتَ القبطان وأصحابه يفلتون من أيدينا وقد حاصرناهم في الحصن ، أنت معزول ولم تعد قبطاناً يا سيلفر !

فهتف به سيلفر :

– أنت شديد الغباء ! وإن أصغر فأر في عنابر الإسبانيولا ليملك العقل أكثر منك ! واسمع جوابي ، إنكم لم تصغوا إليّ منذ البداية واتبعتم ذلك اللعين أندرسون وهاندس وجورج ميري ، وأثرتم انتباه القبطان سموليت بحركاتكم الصبيانية ، وتلومونني لأني

تركت القبطان وجماعته يفلتون ؟ أليس من حسن الحظ أن يأتي الدكتور كل يوم ليعالج جرحاكم ويشفيكم من الأمراض ؟ وأنت يا بوب ؟ وأنت يا جورج الذي أحرقته الحمى ؟ ألا تعلمون أن بلاندي سيرسل سفينة تبحث عن أصحابه في آخر آب إذا لم يرجعوا إلى بريستول سالمين ؟ وأما هذا الفتى فإنه رهينة عندي أيها الأغبياء ، ولولا أني فاوضت الدكتور ، هل كنتم تحصلون على خريطة الكنز التي رسمها فلنت بيده ؟

وهلل الجميع لهذه العبارة ، فرفع سيلفر فوق رأسه الخريطة الصفراء ذات الحواف الحمراء ، تلك التي وجدها ملفوفة في قطعة قماش داخل صندوق بيلي بونز .

وصرخ توم :

– إنها فعلاً هي ، فانا أعرف إمضاء فلنت ، الكنز لنا ..

واعترض جورج :

– ولكن ما فائدة الحصول على الكنز وليس لدينا سفينة تنقلنا معه ؟

فصرخ سيلفر غاضباً :

– إذا نطقت بكلمة أخرى بلهاء قطعت لسانك ، هل فهمت ؟ لقد أضعتم السفينة ووجدت أنا الكنز ، فهل تريدون مني أن أستقيل ؟

فهتف الجميع تقريباً :

– عاش القبطان سيلفر ، عاش .. عاش ..

فقال لهم :

– ناموا الآن ، وافرحوا لأني لا أحمل الحقد على أحد ، غداً بعد زيارة الطبيب سنبدأ البحث عن الكنز ، وستكون عقوبتك يا ميري أن تحرس مدخل المتراس ، وإياك أن تغش .

بعد زمن قصير ارتفع شخيرهم في الكوخ ، ونام سيلفر هانئاً ، وأما أنا فكان الخطر يتربص بي ولم يغمض لي جفن .

الفصل الرابع عشر
البحث عن الكنز

– لقد جاء الطبيب !

هتف جورج ميري .

كانت الشمس مشرقة ، وسمعنا خطوات سريعة ، ثم ظهر الدكتور ليفرسي في إطار الباب ، فتراجعت إلى الوراء خجلاً من أن يراني الطبيب بين القراصنة ، ولكن سيلفر جذبني إلى النور ثم حيَّا الطبيب بمرح قائلاً :

– أتمنى لك صباحاً سعيداً يا دكتور ! كل شيء على ما يرام ومرضاك بأحسن حال ، أقدم لك ضيفاً جديداً لدينا .. الشاب جيم ..

فقال الطبيب بصوت مضطرب :

– جيم .. جيم .. هنا ؟

ثم سيطر على نفسه وقال باتزان :

– سنرى ذلك فيما بعد ، أين المرضى ؟

وكان يعيد ربط الضمادات ويحادث القراصنة ، وكأنه على ظهر الإسبانيولا ، وفحص جورج ثم ديك الذي كان رأسه يؤلمه ، ثم وزع عليهما بعض الأدوية .

وقال مخاطباً سيلفر :

– أخطأت خطأً كبيراً حين خيمت في المستنقع فأصابتكم الملاريا ، وكنت أظنك أذكاهم يا سيلفر ، ولن تشفوا تقريباً ، ولن تكون هذه زيارتي الأخيرة لكم ، والآن بعد أن اعتنيت بصحتكم الغالية ، أريد أن أقول كلمة لهذا الفتى .

فصرخ جورج :

– لا ، أبداً .

فقاطعه سيلفر قائلاً بلهجة مهذبة :

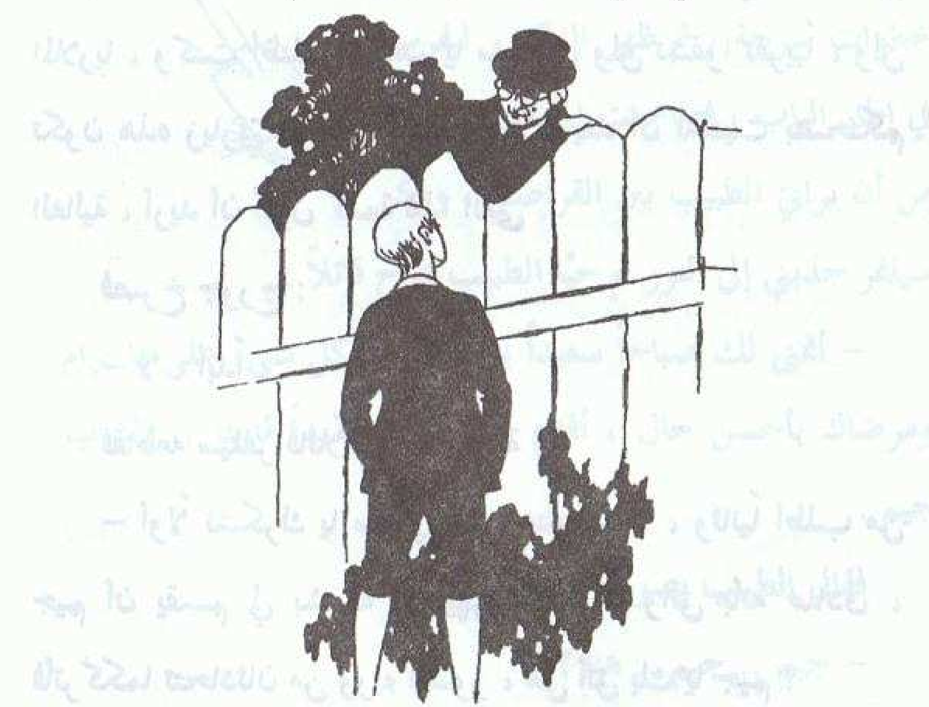
– أولاً نشكرك يا سيدي على عنايتك بنا ، وثانياً أطلب من جيم أن يقسم لي بشرفه ألا يهرب ، وأنا واثق بأنه صادق ، فأترككما تتحادثان من وراء السور ، هل أثق بك يا جيم ؟

فقلت له :

– نعم .

وعلى حين كان سيلفر يهدئ من غضب أصحابه ، جريت إلى حيث ينتظرني الطبيب أمام السور ، وقلت له بصوت خافت :

– لقد أخطأتُ يا سيدي حين تركت الحصن دون موافقة القبطان ، ولكن أرجوك أن تصدقني لأني لم أكن خائناً ولا جباناً ، وقد عاتبت نفسي لأني انطلقت دون إذن منكم .



فقال الطبيب :

– يسعدني أن أسمع منك هذا الكلام يا جيم ، وقد ظننت أن اليأس قد نال منك .

فامتلأت عيناي بالدمع لسماع صوت الطبيب العطوف ، وقلت له :

– إن حياتي في خطر ، وإن سيلفر هو الذي حماني من القتلة ، ولكن هل يستطيع ذلك مدة طويلة ؟ ولست أخاف من الموت ، ولكني خائف من التعذيب لكي أبوح لهم بكل ما أعلم .

فقال الطبيب بصوت مرتجف :

– التعذيب ؟ لا يمكن أن أسمح بذلك ، هيا اقفز فوق السور واهرب معي !

– لقد أعطيت سيلفر كلمة شرف .

– سأجد لك مخرجاً من هذا .

– لا .. لا أريدك أن تشجعني على الهرب ، الأهم من ذلك أن السفينة في مأمن ، وهي راسية على الضفة الجنوبية من شمال الجزيرة ، وأنا الذي سقتها إلى هناك .

وشرحت للطبيب ما حدث معي بإيجاز ، فقال :

– آه يا جيم ! يا لك من فتى شجاع ! فهل نتركك للموت ؟ لا ، أنت الذي اكتشفت الخريطة واكتشفت المؤامرة وقابلت بين غين واستعدت الإسبانيولا ، نحن مدينون بكل شيء للفتى جيم .

ونادى بأعلى صوته :

– سيلفر .. سيلفر .. اقترب .

ثم قال له بصوت خافت :

– لا تتعجل في البحث عن الكنز .

فسأله سيلفر بقلق :

– ماذا تعني بذلك يا سيدي ؟ أصغ إليّ يا سيدي ! إن ما فعلته من أجل جيم يجب أن يعيد ثقتك بي لإني بجانبكم ، فأنا مضطر إلى ذلك ، أقسم لك ، فلا تعاملني معاملة العدو وكن صريحاً معي ، لقد أعطيتني الخريطة وأعطيتني الحصن ، وأنت الآن تصرح ولا توضح ، إنني كالممسك بدفة السفينة أثناء العاصفة ، فإذا تركتها حمل الموج كل شيء ، سوف يقتلكم رجالي ويبدؤون

بجيم ، وأنا قلق على نفسي وعلى جيم أيضاً ، وأنت لا تريد لهذا الفتى أن يموت !

– لقد ناديتك من أجله يا سيلفر ، وعلى الرغم من أنك ضالع في جرائم كثيرة تستحق العقاب ، لكن إنقاذك لجيم سيكون لصالحك . فقال سيلفر بابتهاج :

– لست محتاجاً إلى المزيد ، أنت رجل موثوق به ، وأظن أن حبل المشنقة يبتعد عن عنقي الآن ، ولكن ما غايتك من دعوتي إلى التريث في البحث عن الكنز ؟ لا أستطيع منعهم من التفتيش عنه ، على العكس ، ينبغي أن أرشدهم إليه وإلا قتلوني ومعي جيم .

– لا يمكنني أن أقول المزيد يا سيلفر ، وكل ما أطلبه منك أن تكون حذراً حين تصل إلى موقع الكنز ، واجعل جيم قريباً منك ، وإذا احتجت إلى المساعدة فنادني ، سآتيك بالنجدة .

وصافحني الطبيب من وراء السور وهزّ برأسه إلى سيلفر مودعاً ، فقال لي سيلفر بصوت خافت :

– شكراً يا جيم ، حسناً فعلت إذ رفضت الهرب حين حثك الطبيب عليه ، لو كنت أقل أمانة لقتلني الرجال ، ولست أنساها لك .

وناداه جورج ميري من بعيد :

– لقد حسبناك هربت مع الطبيب ، هل لديكما الكثير من الأسرار ؟

فقال سيلفر :

– نعم أيها الغبي ، لدي الكثير من الأسرار ، وهل تريدني أن أنقض العهد أو أرميه برصاصة ، ونحن نستعد للبحث عن الكنز ؟ هيا ، لقد حان وقت الغداء .

كنت جائعاً ، ولكني لم آكل شيئاً لخوفي من تلك النظرات الحاقدة التي يرميني بها القراصنة ، أو لخوفي مما وعد سيلفر به أصحابه من أنهم بعد الحصول على الكنز سوف يشنون الغارة على الطبيب وجماعته .. وختم حديثه قائلاً :

– وبعد أن نحصل على الكنز والسفينة سيأخذ جيم نصيبه من الغنيمة .

وكانت لهجته ساخرة حتى شعرت باليأس يغمر قلبي ، وقلت لنفسي إن سيلفر يلعب على الحبلين ، وإنه سيميل إلى الجهة الرابحة حيث يجد مصلحته ، حتى لو اقتضى الأمر أن أكون أول الضحايا ، أليست مصلحة سيلفر في الحصول على الكنز وعلى السفينة معاً ؟

غادرت الحصن مع القراصنة مطأطئ الرأس ، وقد ربط سيلفر خصري بحبل وعقد طرفه الآخر إلى حزامه ، وترك لي مجال الحركة دون أي إمكانية للهرب .

كان سيلفر ممسكاً خريطة فلنت بيده ، وقد توجهنا بخط مستقيم إلى الجزء من الجبل المسمى (كتف اللورغينت) ، وذلك هو النقطة العلامة التي توجّهنا إلى الكنز ، وأمضينا ساعتين حتى وصلنا إليها ، فأي الأشجار هي المشار إليها في الخريطة ؟

وسرعان ما ارتفع صوت ديك :

– هنا ، هذه هي الشجرة !

وجرينا إليه ، كان تحت الشجرة هيكل عظمي لبحار يسهل التعرف عليه من نوعية ثيابه ، وقد تمدد في وضعية غريبة ، كانت يداه ممدودتين فوق رأسه كما يفعل الغطاس وهو يرتمي في الماء .

فقال سيلفر وقد شحب لونه :

– إنها إحدى حيل فلنت ، وهذا أحد البحارة الستة الذين قتلهم ، وأظنه نظراً لطول قامته (ألارديس) . ووافقه على قوله توم وجوج ميري وبوب .



وتابع سيلفر قوله :

– سأشرح لكم معنى وضعيته هذه ، إن ذراعيه تشيران إلى اتجاه الشمال الشرقي حيث جزيرة الهيكل العظمي ، فإذا مشينا

باتجاه مستقيم وصلنا إلى شجرة هائلة ، فالطريق يسير بمحاذاة اللورغينت ، هيا إلى الأمام .

ومشى سيلفر متوكئاً على عكازه ، وقد شغل تفكيره الحصول على الكنز ، ونسي وعده للطبيب بأن لا يسارع إلى البحث عن الكنز ، وأن يطلب النجدة إذا احتاجها .

توقفنا حوالي ربع ساعة لكي نأكل ويستريح سيلفر والجريح ، ثم انطلقنا بالطريقة الشيطانية نفسها ، فقد سيطرت الكآبة على البحّار ، لأن فلنت استخدم أحد ضحاياه دليلاً على الكنز ، وتعاظم الحزن في نفوسهم لهذه الاستهانة بالنفس البشرية ، وكانوا يتحدثون عن قسوة هذا البحار الشرس وأغنيته ذات اللازمة : " خمس عشرة فوق صندوقِ ميتٍ " ونهايته التعيسة في السافانا .

وقال جورج ميري بصوت خافت :

– لن أنسى ما حييت وجهه المزرق وعينيه الجاحظتين ، وكان يئن طوال الليل وبيلي بونز بجانبه .

فقال توم وهو يتلفت جزعاً :

– لا أظن أن الموتى يعودون .

فقال بوب :

– لئن عاد فلن تجده هنا إلا قرب الكنز .

فنهرهم سيلفر :

– كفى حماقة ! فكروا بالذهب والجواهر التي تنتظرنا تحت شجرة هائلة قريبة من هنا .

وهتف القراصنة وهم يشيرون إلى شجرة شامخة بين الشجيرات :

– إنها هذه .. هناك !

فرفع سيلفر عكازه وأشار إليها :

– نعم .. إنها هي ، هللوا يا رفاق .

وجعلوا يجرون وهم يطلقون صرخات فرح لا معنى لها ، وكانت منحدرات اللورغينت قاسية ، وسيلفر يقفز وهو يجذبني وراءه . وسبق جورج ميري الجميع إلى الشجرة ، فأطلق صرخة وحشية :

– سرقوه .. سرقوه .. !

كان تحت الشجرة حفرة واسعة ، وقد تناثرت حولها الحجارة والحصى وبعض الألواح الخشبية ومجرفة مكسورة كُتب على مقبضها " فالروس " .

لا ريب أن أحد الناس قد سبق القراصنة إلى كنز فلنت .

الفصل الخامس عشر

خاتمة

قرأت على وجه سيلفر تغيراً تاماً في نظراته إليّ ، وخلال ثانية واحدة أصبح صديقي بعد أن خاب أمله .

فرمى إليّ بمسدس ، وتراجع ليجعل بيننا وبينهم تلك الحفرة الواسعة .

لا يمكن وصف الحالة الهيستيرية التي انتابت القراصنة ، فكانوا يحفرون الأرض بأظافرهم ، ووجد توم جنيهاً فرفعه إلى أعلى وهو يزأر :

– هذا هو الكنز كله ، لقد خدعَنا سيلفر !

وصرخ جورج ميري :

– الموت للخائن ! إنهما اثنان ، الشيخ العاجز والفتى ، هيا يا رجال ..

وصوب مسدسه تجاهنا ، ولكن انطلقت في تلك اللحظة عدة رصاصات من الشجيرات المجاورة ، وقفز سيلفر إلى الوراء ، وسقط جورج ميري وبوب ووجههما إلى التراب ، وهرب القراصنة الثلاثة بأقصى سرعتهم ، وخرج الدكتور وبين غين من الشجيرات يجريان إلينا .

وهتف سيلفر مندهشاً :

– بين غين ؟ من أين خرجت ؟ آه .. كنت أتساءل كيف أننا لم نجد بجانب رفات (ألارديس) سكينه وعلبة دخانه ؟ لا يمكن لفلنت أن ينتزعهما منه ، أنت الذي وجدت الكنز ونقلته من مكانه ، لم أعد أدهش يا دكتور لإعطائك الخريطة لنا .

وكانت خيبة سيلفر عظيمة ، ولكن لديه قدرة على التظاهر وإخفاء انفعالاته ، بحيث استعاد مظهره المرح الذي ألفناه على سطح الإسبانيولا ، وقال بين غين :

– نعم ، إنه أنا يا سيلفر ، وكيف حالك الآن ؟

وقطع الحوار صوت الدكتور قائلاً :

– هيا انطلقوا معي إلى السفينة قبل أن يصل إليها الهاربون ، إنها في الخليج الشمالي .

ونفذنا تعليمات الدكتور حرفياً ، فوصلنا بعد ساعة إلى القاربين ، فكسرنا أحدهما وركبنا الآخر لكي نلتف حول الجزيرة .

وأثناء هذه الرحلة روى لي الدكتور كيف أن لقائي ببين غن كان سبباً في عثورنا على الكنز ، لأن السنوات الثلاث التي قضاها وحيداً في الجزيرة أتاحت له اكتشاف الكنز ، فحمله إلى مغارة يسكنها ، واتفق مع الدكتور وأصحابه على الإقامة معه والتناوب على حراسته .

وبعد أن أنهى الدكتور حكايته شدَّ على يدي بحنان وقال :

– لا يمكنك أن تتصور خوفي عليك حين خاب أمل هؤلاء القراصنة في العثور على الكنز ، وقد جرينا أنا وبين غن بأقصى سرعتنا لكي نصل إليكم قبل أن ينالوك بأذى .

فقال سيلفر بلهجة مازحة :

– لولا جيم لما كلفتم أنفسكم مشقة المجيء لإنقاذ سيلفر المسكين .

فقال الدكتور ضاحكاً :

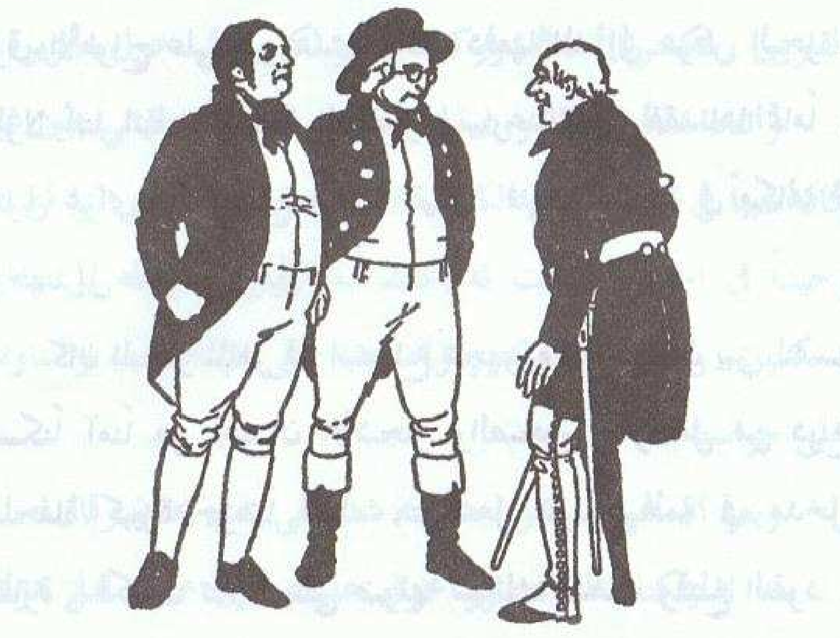
– هذا أكيد !

حينما وصلنا إلى الخليج الشمالي وجدنا الإسبانيولا تتراقص فوق الأمواج على غير هدى ، فقد دفعها المد إلى عرض البحر ، ولولا أننا اتبعنا نصيحة الدكتور وسارعنا إليها لفقدناها تماماً ، وتولى غراي مهمة صنع مرساة ثقيلة ، فثبت السفينة في مكانها ثم توجهنا إلى مغارة بين غن .

كان البحار الماهر قد استطاع بمجهوده الفردي أن يبني لنفسه مسكناً آمناً من أغصان الأشجار والصخور ، وجعل من درع سلحفاة كبيرة حوضاً للماء ، وأشعل ناراً ضخمة في مدخل المغارة ، فكانت تتلألأ على ضوئها سبائك الذهب وقطع النقود ، ويكاد نورها يخطف الأبصار ، وحين رآني القاضي تريلوني عانقني بشوق شديد .

وأما القبطان سموليت ، فقد قطب حاجبيه حين رآني وصافحني وهو يقول :

– إنك فتى شجاع يا جيم هوكنس ، ولكني أحذرك فوراً بأننا لن نسافر معاً أبداً ، وأفضل أن يكون بحاريّ أقل ذكاء وأكثر انتظاماً وطاعة لأوامري .



وأما دخول سيلفر إلى المغارة فقد أثار بعض المتاعب ، وذلك أن القاضي حين رآه اندفع إليه قائلاً :

– يا لك من جبان وقح ، لقد مات سبعة عشر رجلاً بسببك وتجرؤ على البقاء حياً ؟ لولا أن الدكتور قد تجاوز عن أخطائك

ووعدك بالعفو لخنقتك بيديَّ هاتين ، آمل أن تقضي ما بقي من أيامك نادماً على جرائمك !

فأجابه سيلفر بصوت خانع شديد التقى يدل على خبثه :

– إني بدأت توبتي الآن .

فنهره القاضي بكبرياء :

– اخرس ، ولا تملأ سمعي بأكاذيبك !

وكان القبطان ممدداً على فراش من العشب ينظر إلى سيلفر بعينين يتطاير منهما الشرر ، وحين التفت إليه سيلفر يسأله عن صحته ، أجابه بكلمة واحدة :

– أيها المنافق !

ولو كنت مكان سيلفر لتمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعني من الخجل .

من صباح الغد ، وبعد ليلة هانئة استرحنا فيها من التعب والخوف ، بدأنا نقل كنز فلنت إلى سفينتنا . فكنت أعد الأحمال في المغارة ، وينقلها غراي وبين غين إلى السفينة حيث يرتبها الدكتور والقاضي في العنابر بمساعدة سيلفر ، وهما لا يغفلان عن الكنز .

واقتضى ذلك منا عدة أيام ، وكانت صحة القبطان سموليت تتحسن تدريجياً ، بحيث كنا قادرين منذ بداية الأسبوع القادم على مغادرة جزيرة الكنز نهائياً .

وقد استقر عزمنا على ترك البحارة الثلاثة في الجزيرة ، ولم نسمع بهم أبداً ، وخلفنا لهم في الحصن كمية من البارود والمجارف وبعض الأدوية واللحم المجفف والأدوات والملابس وأشياء عديدة مفيدة لهم ، ثم أبحرنا .

وقررنا أن نتوجه إلى أقرب مرفأ إسباني في أمريكا الجنوبية ، إذ أنه لا يمكننا الذهاب إلى بريستول بهذا العدد الضئيل من البحارة .

وقد حالفنا الحظ ، فلم نواجه سوى عاصفة واحدة ، ولو هبت عاصفة ثانية لما استطعنا التغلب عليها لشدة إعيائنا .

وكم كانت فرحتنا عظيمة حين أرست بنا الإسبانيولا في أحد الموانئ الذي تتناهى إلى أسماعنا منه الأغاني والضحكات ! وكم يتناقض هذا مع إقامتنا الكئيبة الدامية في جزيرة الكنز .

وتوافد إلينا الهنود الحمر والسود والمكسيكيون يعرضون علينا فواكه بلادهم وخضارها .

نزل القبطان سموليت والدكتور والقاضي إلى البر لكي يتعاقدوا مع طاقم من البحارة يقود الإسبانيولا إلى بريستول ، وكنت أشعر بالبهجة وأنا بصحبتهم ، وتُرِكت السفينة تحت حراسة غراي وبين غين .

وأما سيلفر فقد حُجز في مقصورته على الرغم من توسلاته وتظاهره بالتوبة الصادقة .

وشاءت المصادفة أن نلتقي بضابط في البحرية الإنكليزية ، فضمن أن يجد لنا طاقماً من البحارة الأكفاء الموثوق بهم .

وأمضينا معه سهرة ممتعة ، ورجعنا إلى السفينة ، فاستقبلنا غراي بوجه حزين وقال :

– لقد هرب سيلفر ..

فقال القبطان بانزعاج :

– كيف هرب ؟ ومفتاح المقصورة معي ؟ !

– لقد ساعده بين غين .

وحين سئل بين غين اعترف بأنه ما يزال يشعر بالرهبة من سيلفر رئيس البحارة في سفينة فلنت ، وأن في هربه أماناً لنا جميعاً .

فقال الطبيب :

– إنه على حق ، والأفضل أن تحدث الأمور بهذه الطريقة ، فقد أساء إلينا سيلفر بالغ الإساءة ، وهو يستأهل حبل المشنقة ، ولن أسامح نفسي إذا تركته سالماً بعد هذه الجرائم كلها ، ولو أرجعناه إلى إنكلترا فكأننا أطلقنا فيها وحشاً كاسراً ، نحن المسؤولون عن جرائمه ولا تنسوا أنه قد أنقذ حياة جيم ، وسيكون من نكران الجميل ألا نتيح لهذا المخلوق البشري فرصة أخرى للحياة بعد أن أهدانا حياة جيم . وقد أسدى إلينا سيلفر خدمة أخيرة باختفائه .

ولاحظ القاضي قائلاً :

– ولكنها ليست خدمة مجانية ، فقد كسر أحد أبواب العنبر وحمل معه حوالي أربعمائة جنيه .



فقال الطبيب :

– لتكن هذه فرصته الأخيرة للعيش في هذا الجزء من العالم ، لأن حبل المشنقة ينتظره في الجزء الثاني منه .

تلك كانت آخر مرحلة من حياة البحار ذي الساق الواحدة ، وقد اختفى من حياتنا ، ولم أسمع عنه شيئاً بعدها .

كانت رحلتنا إلى بريستول موفقة ، ووصلنا في الوقت المناسب لمنع السفينة من الانطلاق للبحث عنا .

ويصعب عليَّ أن أصف فرحة أمي وفرحتي باللقاء ، وعودتي إلى بلاك هيل .

وقد تقاسمنا كنز القبطان فلنت ، فكان فينا المبذر والمقتصد ، وسافرت الجنيهات الذهبية في أنحاء الدنيا وحبس بعضها داخل مخدات الصوف لئلا ترى النور .

وأما أنا فقد اشتريت فندقاً أكبر من فندق (الأميرال بنبو) وأحسن موقعاً منه ، ولم تعد والدتي تفعل شيئاً سوى إصدار أوامرها إلى الخدم .

في ليالي الشتاء العاصفة تتردد في سمعي مع أمواج البحر العاتية ، لازمة أغنية محفورة في الذاكرة :

(إنهم خمسة عشر رجلاً فوق صندوق ميّت)

الفهرس

جزيرة الكنز

روبيرت لويس ستيفنسون

يعثر الفتى جيم هوكنس على خريطة الكنز ، فينطلق مع الدكتور ليفرسي والقاضي تريلوني والقبطان سموليت للبحث عنه.

ولكن القاضي يبوح بسر هذا الكنز ويجلب إليهم انتباه القراصنة الذين يترأسهم لونغ جون سيلفر ، ذو الساق الخشبية. فكيف تكون نهاية هذه المغامرة ؟ ! .

صدر من هذه المجموعة :

1 ـ الذئب الأبيض
2 ـ توم سوير
3 ـ الهندي الشجاع
4 ـ مذكرات حمار
5 ـ نداء الغابة
6 ـ روبنسون كروزو
7 ـ هايدي
8 ـ حكايات أندرسون
9 ـ عشرون ألف فرسخ تحت البحار
10ـ ريمي الصغير
11ـ نساء صغيرات
12ـ جزيرة الكنز
13ـ حول العالم في ثمانين يوماً
14ـ كوخ العم توم
15ـ شرلوك هولمز
16ـ مغامرات الكابتن فراكاس
17ـ حرب النار
18ـ الحوت الأبيض
19ـ كتاب الأدغال
20ـ أحدب نوتردام
21ـ اللورد الصغير
22ـ الشيطان الصغير
23ـ أحزان صوفي
24ـ فتيات مثاليات

تصميم الغلاف : هيثم فرحات

